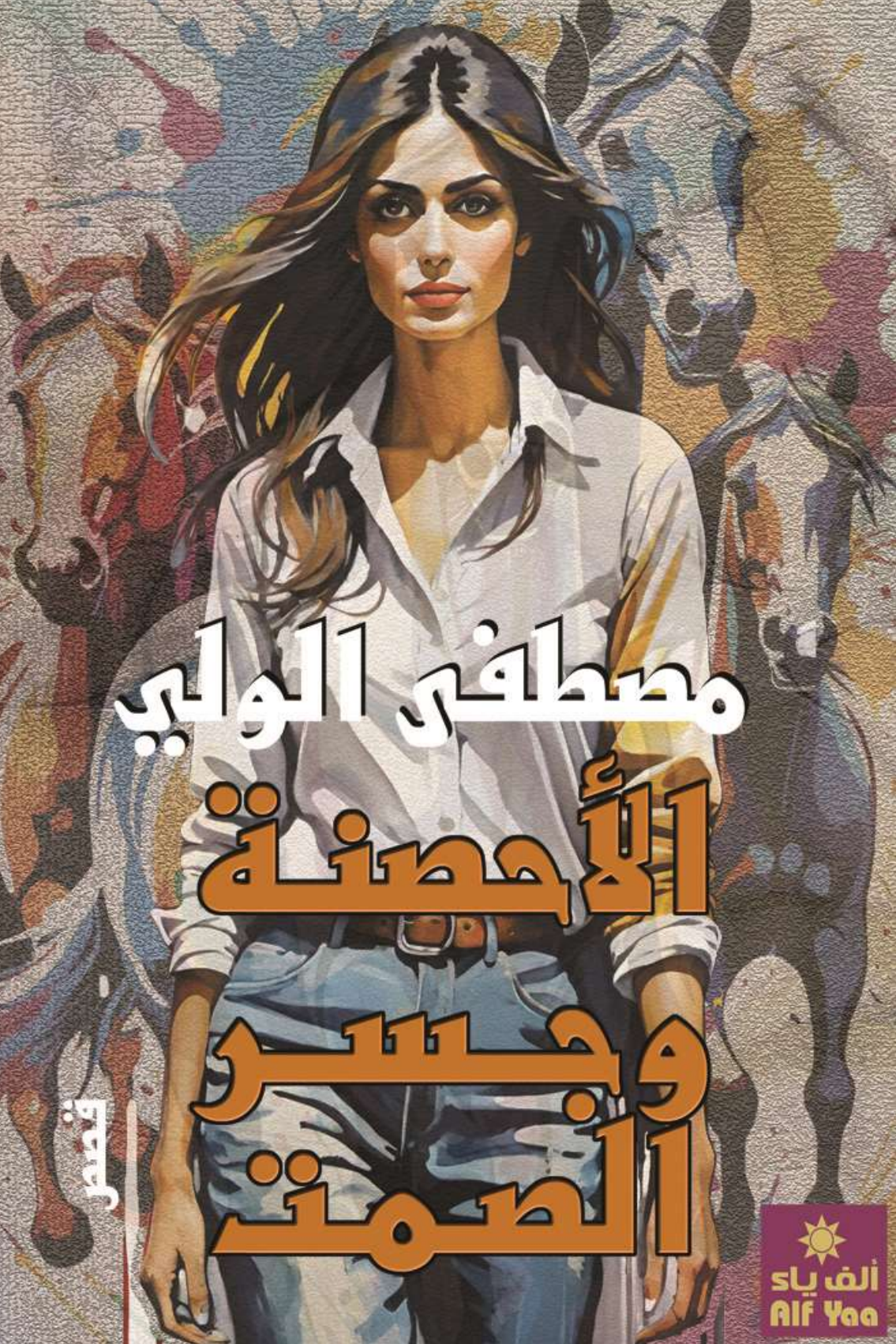

مصطفى الولي

الأحصنة وجسر الصمت

قصص

ألف ياء
Alf Yaa

الأحصنة
وجسر الصمت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المؤلف: مصطفى الولي

الكتاب: الأحصنة وجسر الصمت

صدرت النسخة الرقمية: كانون الثاني/يناير 2025

- **الناشر: «ألف ياء AlfYaa»**
- **الموقع الإلكتروني:** www.alfyaa.net

- جميع حقوق توزيع النسخة الرقمية بكل التنسيقات (PDF، ePub وMobi و/أو أي تنسيق رقمي آخر محفوظة لـ**«ألف ياء AlfYaa»**
- جميع حقوق الفكرية محفوظة للمؤلف
- يعبِّر محتوى الكتاب عن آراء مؤلفه.
«ألف ياء AlfYaa» ناشرة للكتاب فقط وهي غير مسؤولة عن محتوى الكتاب

- **تصميم الغلاف والإخراج: طالب الداوود**

منشورات «ألف ياء AlfYaa»

مصطفى الولي

الأحصنة
وجسر الصمت

قصص

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الأحصنة

إلى التي غابت لتحضر أكثر

إلى آمنة دعيبس

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

السلطان يوزع الحليب

(1)

اقتراحات

حطت ذبابة على الشفة السفلى للسلطان، عندما كان وزير البلاد يشير إلى ثلة من الجند لترفع اللبن والعسل عن المائدة، وتحضِّر القهوة المرة.

هبَّ وزير الشرطة واقفاً، فاستل الحراس سيوفهم، لكنه أمرهم بإغمادها. واستنجد بفرقة طوارئ متخصصة مزودة باسطوانات غاز مستوردة لإنعاش هواء القصر.

حين هوت الذبابة تحت كرسي العرش، أمر السلطان الجميع بعدم التدخل رأفة بها. مكتفياً بقص جناحيها فقط، لتُكتب لها حياة جديدة، لا بد أنها ستمضيها مؤدبة، لا تخرج عن حدودها، مقلعة عن العبث خلال الأوقات الجدية.

قال خبير البيئة:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ــ بعد إذن مولاي، أقترح إرسالها إلى المختبر حتى تطمئن قلوبنا، فربما تحمل مكروبات خطيرة، مصدرها جهات معادية.

اقترح وزير الشرطة:

ـ وضعها في القفص.

طالب وزير البلاد:

ـ بتحنيطها لإبقائها عبرة للآخرين.

زحفت الذبابة، تسلقت ساق كرسي لوزير تأخر عن الحضور.

تناول السلطان من طبيبه حبات دواء، متعددة الألوان، مختلفة الأشكال، متفاوتة الأحجام. ابتلعها على التوالي، وأمر بافتتاح الاجتماع.

تلا وزير البلاد جدول الأعمال:

ـ تغيير الأحصنة.

ـ استبدال الأسلحة.

ـ التدقيق في اللغة المكتوبة والمحكية.

بدل مهندس الإضاءة توزيع الحزمات، وكثَّفها في بؤر، وزعها على وجوه المجتمعين، فبدت خطوط بيضاوية ومثلثة ومربعة أو مستطيلة، انمحت داخلها أية ملامح، باستثناء آذان واقفة خارج مساحة الوجوه. وما لبث أن تردد صوت يتبعه صداه كأنه آت من خارج القصر:

ـ الأحصنة في إسطبلاتنا شابة وجديدة.

ـ الأسلحة طورناها وهي بين أيدينا.

ــ أما اللغة فلا تزال خارج السيطرة. سنتابع بذل الجهود للقبض عليها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

(2)

فرمان

إلى كل القائمين على تعليم النشء وإعدادهم في أرجاء البلاد. عليكم بالشروع في الحال لتحضير امتحان عاجل ومهم في درس اللغة. على أن تكون الأسئلة واضحة ومركزة ومختصرة، رأفة بعقول التلاميذ ومساعدة لهم في النجاح الأكيد.

وعليه نأمركم بتوجيه سؤالين فقط. وصححوا أوراقهم وفق سلم علامات منصف وعادل، مع ضرورة تقيدكم بقسط من التساهل في الأخطاء النحوية والإملائية، حتى إن كان الخط غير واضح لا ضير. العلامة تُوضع على وفق ما يرد في الامتحان من أفكار أفصح عنها التلاميذ. وإن التبست عليكم تعبيراتهم المكتوبة، فعليكم إثبات جدارتكم في إزالة كل غموض وإبهام للتعرف إلى القصد المضمر خلف ما خطّوا بأقلامهم.

ونأمركم أيضاً:

ــ موافاتنا بنسخة طبق الأصل عن كل ورقة امتحان. وسنصرف لكم من حساب الخزينة ثمن الأوراق، كما سنزودكم حالاً بآلات تصوير حديثة تصلكم وقت وصول هذا الفرمان.

ــ يتم التنفيذ فوراً. وخلال ثلاثة أيام من تاريخه تُرسل إلى البلاط النسخة المصورة عن أوراق الامتحان.

سؤالان للامتحان:

ــ ألّف ثلاث جمل مفيدة. اسمية أو فعلية لا فرق ولك حرية الاختيار والتنويع.

املأ الفراغات التالية:

- هطلت أمطار غزيرة ـ ـ ـ ـ الزرع.
- غنَّى الأطفال ـ ـ ـ ـ الأمهات.
- واظب التلميذ على دروسه ـ ـ ـ ـ ـ آخر العام.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ـ شاهد الطفل حجراً في الطريق ـ ـ ـ ـ ـ.

ـ أطلقوا سراح أخي من الأسر ـ ـ ـ وتمنينا لو ـ ـ ـ.

ــ يُعمم هذا النموذج على كافة مدارس البلاد. ويتم التقيد به. وكل ورقة امتحان تشذ عن المطلوب، يعدُّ صاحبها ساقطاً في الامتحان، وتتخذ بحقه الإجراءات التي تناسب مصلحة الوطن.

ــ نجاح التلاميذ دليل صلاحيتكم لمهنتكم المقدسة وإخلاصكم للسلطان. بانتظار النتائج على أحر من الجمر.

حاشية:

الطباشير التي طلبتموها لعملكم، ألفنا لجنة متخصصة لدراسة النوع الأفضل منها. وسينبثق عن اللجنة المتخصصة، لجنة مشتريات عامة، تتفرع منها لجنة استيراد كفؤة وستستعد للسفر بعد تعيينها، على أن تستكمل أوراقها الثبوتية اللازمة.

(3)

ابتهاج

رفع خبير التربية تقريره إلى مولاه، يزف له بشراه بالنتائج المشرفة للامتحان. طيّر وزير البلاد، بأمر من السلطان، برقيات عاجلة إلى كل رؤساء الدول وسلاطينها وملوكها، يبلغهم فيها بسلامة اللغة في عقول النشء في الدولة الفتية. ويدعوهم إلى احتفال عالمي في قصره، تضامناً مع تحضّر رعيته وتشجيعاً للعلوم في ظلاله.

كما احتفظ البلاط بنسخة عن أوراق الامتحان في القصر، على مقربة من مجلس السلطان. وأمر القلم بتنفيذ رغبة سيد البلاد في مكافأة القائمين على إعداد النشء، فأعد مسودة القرار برفع مرتبات المعلمين. وأخرى بتثبيت خبير التربية وزيراً،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وأوعز لوكالات الأنباء، وأجهزة الإعلام، بشطب كلمة «مؤقت» حين يُذكر وزير التربية.

التلاميذ طفقوا يغنون ويلعبون في باحات المدارس، واندفعوا خارج أسوارها نحو الشوارع، للتعبير عن بهجتهم بعلاماتهم العالية.

وراحت وكالة الأنباء الوطنية تكرر إذاعة خبر الفرحة الغامرة في ظلال السلطان المفدى، وأرفقته بصورة حية، أعدها مختصون بفن التظهير المناسب.

أبدى عدد من مندوبي الصحف، ومراسلي الوكالات، حاجتهم لتغطية الاحتفالات بشكل حي بكاميراتهم ومسجلاتهم، مدَّعين الرغبة في توسيع دائرة الاهتمام بالحدث، والمشاركة في واجب التأييد والدعم للسلطان. فرأت الجهات المختصة في البلاط، أن ما يطلبه هؤلاء لعبة خبيثة تفوح منها رائحة دسيسة للتشكيك بحقيقة الوضع في ظلال صاحب السيادة. لكنها لم ترد على طلباتهم بالرفض المباشر، إنما اكتفت بتوظيف خبراتها لطي الموضوع، فقامت بإبلاغ الصحفيين والمراسلين والمندوبين، بضرورة تجديد أوراقهم الثبوتية لإعادة اعتمادهم في مهمتهم، فانشغلوا بمراجعة الدواوين والإدارات، التزاماً بالقوانين والأعراف المتبعة. وفي اليوم التالي، كذَّبت الوكالة الوطنية للأنباء، ما نشره مراسل فضَّل عدم ذكر اسمه، بعد أن غادر البلاد، مترفعاً عن تقديم طلب اعتماد جديد، مشيراً إلى أن الغرض منه ثني المراسلين عن القيام بالتعبير عن الحقيقة، بإلهائهم أو تخويفهم.

وصلت الوفود تباعاً للتحضير الأكمل للاحتفال قبل وصول أصحاب السيادة والجلالة. واستأذن بعضهم وزير البلاد للاطلاع على ما كتبه التلاميذ في أوراق الامتحان. معللين ذلك برغبتهم في نقل التجربة إلى بلادهم، ولإتاحة الوقت اللازم لمشاركة سادتهم سلطان البلاد بالفرح، ومعالجة القضايا الكبرى.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

(4)

الكمبيوتر

ارتسمت خطوط، وظهرت جداول بيانية. تقلبت المخططات على شاشة الجهاز. وكان الضيوف يرمقون الأرقام والحواشي والناتج. تبادلوا النظرات، وأخذ أحدهم فتح ملفات أوراق الامتحان من ذاكرة الجهاز. توقف عند أوراق كثيرة.

ليسأل بعدها مندوب البلاط في الأرشيف:

ـ لماذا كل جمل التلاميذ في الامتحان فعلية.

طلب ضيف آخر تصنيف الأفعال حسب دلالاتها وليس حسب أزمنتها أو أنواعها.

بدأ الكمبيوتر يستعرض واستقرت سجلاته البيانية:

ـ أفعال الشدة والقوة	35%
ـ أفعال الخوف والقلق	45 %
ـ أفعال العبث	15 %
ـ أفعال تتعلق بشخص السلطان	5 %

عبرٌ أحد أعضاء الوفود التمهيدية، التي سبقت وصول أصحاب الجلالة والسيادة، عن رغبته في الاطلاع على عينات حرفية من أفعال الخمسة في المئة.

أعطى عامل الجهاز أمراً للحاسب، جاء الرد أن فتح الملف يحتاج إلى شيفرة لا يعرفها إلا السلطان.

(5)

في حضرته

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أمسك سيد البلاد ورقة التلميذ الواقف بين يديه، وقرأ الجملة التي ملأ التلميذ فراغها:

ـ هطلت أمطار غزيرة فمات الزرع

نعم أستاذ

ــ أستاذ بعينك، قال السلطان. اشتعلت عينا وزير الشرطة. انتفخت صدور الحرس الخاص، واندفعت إلى الأمام بانتظار إشارة.

ـ كيف يموت الزرع من المطر يا بني؟ سأل السلطان.

ــ هو ينمو أولاً، يكبر، يثمر، يمتلئ بالسنابل وينضج الحب فيها. قبل الحصاد يحدث شيء فيندفع جنود من خارج المدينة يحطمون أبوابها يجتاحون الحقول بأقدامهم فيموت الزرع يا سيدنا.

التلميذ الثاني:

ـ غنّى الأطفال فبكت الأمهات

نعم يا مولانا. صارت معي. كنت أغني "أجمل الأمهات التي انتظرت..." فرفعت أمي عينيها إلى الصورة على الجدار وانبجس الدمع من مقلتيها.

التلميذ الثالث:

ــ في العام المنصرم كان فؤاد أشطرنا. يجُدُّ في دروسه، ورسب في نهاية العام، لأنه لم يحضر الامتحان. اضطر للاختفاء لأنهم يطاردونه بتهمة تعريض الأمن للخطر، والإساءة للحاكم العسكري. وجاء وقت الامتحان وهو متوار عن الأنظار خوفاً منهم.

التلميذ الرابع

ـ والله يا مولاي شاهدته بعيني

ـ شاهدته أم أنت الذي خبأت الحجر في حقيبتك؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

أردف سيد البلاد:

ـ افترض أنك شاهدت حجراً في الطريق، ماذا تفعل يا بني؟ واقترب منه مطبطباً على كتفيه. رد التلميذ:

ـ في قريتنا أحجار كثيرة نعمرّ بها منازلنا، ونترك الباقي لوقت الحاجة.

ـ السلطان:

ـ وفي المدينة حيث توجد مدرستك. إن عثرت على حجر في الطريق ماذا تفعل أيها الشاطر؟

ـ عندما أراه يا مولاي سأتصرف. اتركني أذهب وأبحث عن حجر وسترى ما سأفعل به عندما أحضر إليك.

ـ وأنت أيها الخامس! كيف تتمنى لأخيك الموت بعد أن أطلقوا سراحه من الأسر ثمرة جهودنا الشاقة معهم؟ هل لك أخ خرج من الأسر؟

ـ كلا يا مولاي. حصلت لابن جيراننا. أطلقوه مشلولاً. فاقد البصر. هنَّأتُ أخاه بالإفراج عنه فردّ علي: "ليته مات أو بقي في الأسر أفضل".

(6)

طوارئ

إلى كل أصحاب الجلالة، والسيادة، والسمو، المدعوين إلى حضور الفرحة البكر في دولتنا الجديدة.

نعلمكم بتأجيل مهرجاننا العظيم، مع اعتذارنا الشديد. لقد صادف انشغال السلطان بأمر طارئ وستقدرون المهمة التي شغلته بكل تأكيد. حيث اضطر للقيام، شخصياً، باستقبال شحنه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

مـن حليـب الأطفـال، وصـلت إلـى مينـاء دولتنـا الفتيـة. كمـا يسـرنا إعلامكـم أنـه سـيتابع إشـرافه الشخصـي علـى توزيعهـا للتحقـق مـن المسـاواة والعدالـة. خاصـة أنـه كـان سـعيداً بـذكاء أجيـال الدولـة الجديـدة، الـذي لمسـه واضـحاً فـي أوراق امتحـان الأطفـال فـي مـدارس بلـدنا. وكلنـا ثقـة أن هـذه المهمـة التـي شـغلته عـن إقامـة المهرجـان وتأجيـل استضـافتكم لوقـت لاحـق، سـتلقى تفهمكـم، بـل ترحيبكم.

انتهـى القلـم مـن كتابـة بـلاغ السـلطان. وانتقـل لكتابـة أوامـر جديـدة لوزرائه وخبرائه وأعوانه:

ـ حفظ أوراق التلاميذ الذين أساءوا استخدام اللغة. لكنه مـا لبث أن غير الصـيغة، وهـو ينظـر إلـى أكداس مكدسـة مـن الأوراق، فهـرش كرشـه بأظافره، وأمر بعدد قليل من الأوراق للحفظ. والأوراق المتبقية يستدعى أصـحابها للتحقيـق بالجريمـة والإسـاءة لكرامـة الـبلاد وتهديـد مستقبلـها الآمن والمستقر. وغمز وزير شرطته.

عـاد مهنـدس الضـوء إلـى تعتـيم بعـض المسـاحات، وتـرقيص حزمـات الألـوان المختلفـة، فعـلا صـوت مجهـول المكـان والمصدر:

ـ "الآن أحسـنت فعـلاً يـا... ونحـن معـك للقـبض علـى اللغـة. ولا تصـدق أن ابـن خلـدون سـيتهمك لا سـامح اللـه، انـك مغلـوب ومولـع أبـداً بالاقتـداء بالغالـب فـي شـعاره ونحلتـه وسـائر أحوالـه وعوائـده" ثـم انفـتح بـاب القاعـة ليعبـر صـهريج نفـط سـرعان مـا أغرق الأوراق المكدسة.

فـي ذلـك اليـوم اسـتوقف الرعيـة سـؤال عـن سـحب الـدخان المتصاعدة من خلف قضبان نوافذ القصر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الأحصنة

سمعت هنوداً قدامى ينادونني
لا تثق بالحصان ولا بالحداثة
محمود درويش*

رويداً رويداً تحركت موجات البحر. ارتفعت قليلاً ثم تقدمت تداعب جفاف رمل الشاطئ. في تناوب مدها وانحسارها، تشكلت خيوط زبد ترسم عناق الموجات مع ذرات الرمل، فتراءت لمخيلة الطفل ذيلاً لحصان.

يومها كان الطفل يشاهد البحر للمرة الأولى، ويتصل معه بحواسه. ولأنه يعشق الحصان، ويرسم له صوراً شتى في مخيلته، أخذ خيوط الزبد من موجات البحر وجعلها ذيلاً للحصان الذي يعشقه.

* قصيدة لمحمود درويش "طباق عن إدوارد سعيد"، صحيفة الحياة 8 آب 2004

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فكرت في تعريفه بفرس النهر، ثم تراجعت حتى لا أشوش صورة الحصان الذي يعشقه. الحصان عنده يعدو في البراري يصهل ويحمحم. جسده غاية في الجمال، وقوامه رشيق من رأسه حتى أخمص قوائمه.

مفتون بالحصان إلى حد التقديس. يركض مقلداً عدوَ الأحصنة. يدرب حنجرته على الصهيل. من الطين والعجين يشكل أجساد أحصنته الطرية. وعلى الورق يعبث بألوان أقلامه، وحين يضبطني أراقبه يجيب دون أن أسأله، هذا حصان.

فاجأني يوماً بلوحات ظهرت فيها أحصنة وقد نبتت لها أجنحة.

كان ذلك الابتكار في اليوم التالي لوقوع ناظريه على مشهد الحصان البري الأبيض، الذي نجح أنطوني كوين في أسره، بعد مطاردة شاقة له، في أحداث فيلم "مدافع سان سيباستيان".

يومها توقف الطفل عن اللعب، وراح يتابع مشدوهاً لقطات المطاردة. كان الأبيض يرمح شامخاً، وكلما بدت حركة في الصورة تشي بقرب المسافة بين حصان البطل والحصان البري الأبيض، كان وجه الطفل ينقبض، وعلامات الضيق تطفر من قسماته.

وسرعان ما جمع الطفل قبضة يده، وكأنه سينزلها على الشاشة الصغيرة، دفاعاً عن الحصان الأبيض، الذي صار حبل أنتوني كوين طوقاً على عنقه.

يومها اكتفى الطفل بالضغط على مفتاح الجهاز، موقفاً بذلك سير المشاهد التي تفوق فيها بطل الفيلم على الحصان. لعله قام بذلك انتصاراً للحصان البري متوهماً أن بإمكانه إبقاء الموقف مفتوحاً في خياله لرغبته في هزيمة بطل الفيلم.

إثر ذلك صار حصان الطفل مجنحاً. على مساحة جسده دوائر محددة إلى الخارج بخطوط صغيرة، وسط كل واحدة منها نقطة كبيرة باللون الأخضر. لم أفهم رمزها في مخيلته لولا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

توضيحاته بأن تلك الدوائر والخطوط والنقاط عيون يستطيع بها الحصان رؤية كل شيء ومن الجهات كافة.

سألته ما فائدتها؟ فأجابني لحماية الأحصنة من الوقوع في الأسر.

عيون كثيرة يرى بها الحصان كل ما يحيط به. وأجنحة يحلق بها بعيداً عن أخطار الأسر.

حاورت نفسي: "ماذا لو سمع الطفل مصادفة، قبل أن تتسع مداركه، بقصة حاتم الطائي، الذي ذاع صيته بها. ومن يستطيع إقناعه بأن الكرم والسخاء يبيحان ذبح الحصان وليمة للضيوف وإكراماً لهم".

تماديه بعشقه للحصان تحول إلى تعقيدات جديدة، فبدأ يطالبني بشراء حصان له. ومكث على إلحاحه لتلبية هذا الطلب. بينما رحت بدوري أبحث عن رد يقنعه وبالأحرى حيلة تغلق الطريق على تكرار هذا الطلب، وتثنيه عن إصراره."

تريثت في اختيار الرد، قلبت حججاً شتى، متجنباً التسرع في الرسو على أية واحدة منها.

مر ثمن الحصان بخاطري فوجدتها حجة بلا جدوى، لأن لغة المال والأرقام لا تعنيه. ركنت إلى حجة الاعتناء بالحصان ورعايته وتدريبه، لكنني عدلت عنها فوراً، لأنني توقعت أن يعلن نفسه سائساً من الطراز الأول. توقفت عند فكرة تأجيل الموضوع حتى يكبر قليلاً، بيد أني سرعان ما استبعدتها، إذ بإمكانه أن يتنازل إلى مهر صغير ويغلق عليّ خط الرجعة.

تقطعت بي السبل، وحين اعتقدت أنها فُرجت، وردي على الطفل بات مقنعاً لثنيه عن طلبه شراء حصان، لم أكن أتوقع تلك التداعيات الصارخة في أسئلته، فتزلزل كياني وقادني الطفل إلى ميدان ما رغبت يوماً أن يدخل إليه قبل الأوان.

حجتي التي اعتقدت أنها خلاصي معه أدخلت الطفل الحرب قبل دخوله مقاعد المدرسة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

قلت لـه:

ـ الحصان يحتاج أرضاً واسعة. ليست عندنا....

و قبـل أن أكمـل كلمـة «أرض» شـعرت بخطـر زلـزال. فعـن أيـة أرض أتحدث مع طفل؟

ـ ليش ما عندنا أرض؟ قال لي.

أخذوها !

ـ مين أخذها؟

- .....

ـ شو يعني احتلوها؟

ـ كان لنا حصان فيها؟

ـ مين بيطعمه ويسقيه؟

و انفجر صارخاً: أريد حصان جدي!

هكـذا دخـل الحـرب قبـل المدرسـة. وتحولـت اهتماماتـه، فـي متابعـة الشاشـة الصـغيرة، إلـى مـا يتصـل بحـوار الأرض وحصـان الجد ومصيرهما.

ذات البـراءة الطفوليـة، التـي دفعتـه لرسـم حصـان ذي أجنحـة وعيـون كثيـرة، بعـد أسـر الحصـان الأبـيض بحبـال أنتـوني كـوين انقلبـت، وببـراءة غيـر منقوصـة، إلـى حقـد وعـداء للأحصـنة. بـل انـه صار داعية لقتلـها.

الشاشة الصغيرة ذاتها قلبت موقفه.

فـي المشـهد الأول، الـذي هـو فـيلم، تضـامن الصـغير مـع الحصـان الأبـيض المطـارد. زرع لـه جنـاحين وعيونـاً كثيـرة ليحميه من المطاردة والأسر والترويض.

علـى الشاشـة ذاتهـا ظهـر المشـهد الآخـر، الـذي لا بـد أن يـراه بعـد أن تحولت اهتماماته إثر زلزال الأرض وحصان الجد.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لكن المشهد الثاني ليس فيلماً. هو واقع حي لونه قان ورائحته ساخنة.

أحصنة ضخمة، لونها قاتم، فوق ظهورها رجال مدججون بالسلاح، يطاردون أطفالاً ونساء وشيوخاً في مدينة القدس القديمة. وتحت سُحب الدخان التي أخذت بالابتعاد، بدت حوافر تلك الأحصنة تخب في بقع حمراء، انسابت بين بلاطات أزقة لا تتسع لعبور آلات الموت الحديثة.

لعن الطفل الأحصنة، وأصدر حكمه عليها بالموت. ونفّذ القرار، على طريقته، بإقلاعه عن تشكيلها بخطوط أقلامه وألوانها فوق الورق.

و ها أنا أنتظر ما ستبتدعه مخيلته وهو يرى الموج يعارك الشاطئ في زيارته القادمة إلى البحر.

كيف سيتراءى له الزبد يا ترى؟

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منار

انطوى نوم المدينة على قلق. فأطرافها تتململ في استرخاء حذر تبدر منه حركات غامضة، تخالج الظلمة بالمجهول.

ليلتها، كانت دروبها بانتظار حسم السباق، بين صوت أذان الفجر ينهي مكابدة ليلة طويلة التوجس، وبين إبرة مدفع "الهاوتزر" تعلن بدء اغتصاب المدينة، قبل أن تفتح أهدابها على فجر جديد، دوّت، تمزق الصمت الغامض.

نفضت عن جسدها غطاءها المهلهل، زحفت على أهدابها تلامس جراحها، فهرع الجميع على غير هدى، وتحول التململ الحذر في تلك الليلة إلى خلجات تضطرم في رحم زلزال. التهبت تلال المدينة بالنيران، وغص فضاؤها بسواد عاصف، فاختنق ندى الصباح في أتونها، وتجرحت صباحات أيلول بشظايا من كل عيار.

من شبه نوم استيقظت منار ذلك الصباح، على أصابع يديها بقايا من حبر الكلمات. وفي زاوية الغرفة رقدت ماكينة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

"الستانسل" في استراحة مجهولة المدى والأفاق. وإلى جانبها تناثرت أوراق بيض تحفها بالدفء، لكنه أصم وأبكم، يعجز عن استقطار الكلمات من ورق الحرير دون لمسات أصابع منار.

حين انفجرت المدينة، كانت منار تجهل لعبة السلاح، فامتعضت الحروف من المعاني غير المألوفة لِوَجيب القلب الصاعد من أصابعها. راجفة صارت أصابعها والكلمات. الطوق الدامي حاصر مخاض النشرة اليومية، وأطلق العنان لآلة الموت، فراحت الشظايا تطارد رائحة الحياة، من خزانات الماء على أسطح المنازل حتى حدود أصابع منار.

انقبضت الألوان فاقدة لونها تحت أجمة رمادية، واختلط الدم برائحة استغاثات مجلجلة في الحناجر وأنين في الصدور. في زوايا الجدران وتحت سقوف تتطامن رعباً، لبدت أجساد طفولة تجهل ما يحيط بها. أما الكبار فشرعوا يبحثون في الراديو عن صوت مدينتهم، فوجدوا المارشات العسكرية تغتال الوقت وتجتاح المساحات.

على دوي القذائف انتفضت الأجساد رقصاً يشي باقتراب موت صاعق. في تلك المسافات، بين حركات الرقص، انبجست كل المعاني، إلا الفرح والأمان، بينما تتسع العيون مع كل دوي يهندس الركام.

في اتساع عيني منار رعبٌ يطوي رعباً. تشردت حواسها، تصغي بها إلى سمت واحد تتشبث بأمدائه. أَدْخَلنا جميعاً في لعبة الحرب، ولعبنا لعبتنا رغمها. فبعد اجتياز عتبة الذهول، اشتغلنا باحتساب عدد القذائف، ثم توغلنا في اللعبة، بدأنا نميز أنواعها وعياراتها وخواصها، واحترفنا اللعب آن صرنا نحدد مصادر القذائف وأماكن سقوطها. اقتصاداً منّا للوقت، وربما محاكاة للغة الحرب، استبدلنا بأسماء المناطق والأحياء والتلال، أسماء اختزالية نرمز إليها بالأرقام.

قسّمنا المدينة إلى مربعات (1- 2- 9) فانغمرنا بشعور إتقان اللعبة، كما يتقّن قادة الحرب لعبتهم خلف آلاتهم.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

في مربع ما، اعترضت منار، رفضت تحويله من مكان في المدينة إلى رقم على خارطة لعبة المربعات في الحرب، تشبثت باسمه الطبيعي. من أجل استمرار اللعبة تنازلنا، وبقي ذلك المكان يحمل اسمه الذي تشبثت به منار.

لما فرغنا من الإصغاء للدوي ومراقبة القذائف وتعدادها، شرعنا نحسب حصة كل مربع في وجبة اليوم الأول، لحظتها ألقت منار في أرض الملعب اعتراضاً على حصة "مربعها " فأعطته الحصة الأكبر من عدد القذائف، وبفارق كبير عن بقية المربعات.

نسيت أسماء مربعاتنا قبل الحرب، و"مربعها " فقط هو الذي بقي اسمه الطبيعي على لسانها.

كنا نصغي جنوباً حيث الدوي المتواصل، وهي إلى الشرق أو الشمال تصغي، وتقطع صخب صمتنا أحياناً بصرخة نازفة بالأسى، مجبولة بالألم.

"دمروا جبل النصر... مسحوه.. لم يبق فيه أحد..."

مبالغتها اللامعقولة في الخوف على ذلك الجبل، جعلتنا نطل عليها من نافذة الشك بمداركها، أو أن مساً أصابها. فتفتح هي بوابات الحقيقة على مصراعيها. تسعف الجرحى، تفتش مكان سقوط القذائف القريبة، تنفخ أنفاس الثقة بالحياة فيذوب الجليد عن النفوس الخائفة. وفي استراحة المارشات العسكرية للراديو، لحظة يطلق المذيع حنجرته تهديداً ووعيداً، أو يقرأ بياناً رسمياً موجهاً للسكان، تقوم بتفنيد الأكاذيب وتتهكم بالجعجعات الإذاعية. ترى المدينة و"المربعات" كما هي وتحصي القذائف فيها بدقة في "مربعها" فقط، جبل النصر تبالغ في العد والإحصاء، وتنكشف عن حال لم نكتشفها. في آخر كلماتها عند حدود لفظها لكلمتي "جبل النصر" تصرخ بانفعال، تغصُّ وتنفصل عنا في موجة صمت، ثم تغيب وتغيب.

تعود إلينا من أعماق بعيدة إلى موانئ مدوية. ونعود معاً إلى مربعاتنا وجبلها. لكننا اعتدنا الحذر من لفظ "مربع" رقم كذا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

عنـدما نقتـرب مـن جبلـها فـي العـد والإحصـاء والإصـغاء. إلا أنّ الحيرة بقيت تلفنا بانتظار جلاء أحد الموقفين:

- الحرب.. و"مربع" جبل منار.

برهـة هـدوء. اجتـاحتني الرغبـة فـي تطـوير اللعبـة. تحـرك واحـد مـن الشـياطين فـيَّ، زرع التواطـؤ علـى منـار، راح ينتظـر قذيفـة قريبـة منـا، سـرعان مـا جـاءت، تزلـزل المكـان ومـن فيـه. لاذت ثرثراتنـا، تحجـرت عيوننـا. وخسـرنا متعـة شـرب الشـاي الـذي انـدلق من الكاسات. نهضنا غريزياً. مِلْتُ نحو مسمعها هامساً:

هـه.. هـذه القذيفـة فـي جبـل النصـر، وأشـرت بيـدي ناحيتـه، بينمـا القذيفـة قربنـا. أرسـلت لـي صـمتة عتـاب بنظراتهـا وبدفعـة مـن كتفها. ثم تناثرنا في دروب الحي نفتش عما لحق من أضرار.

طـوال الوقـت، حتـى الـهدنة الفعليـة الأولـى، تمـاهى إصـغائي لمجـرى الحـرب مـع فصـولي لكشـف سـر "مربـع" جبـل النصـر. صـارت أمنيتـي بانتهـاء الحـرب أو توقفهـا، مشـدودة إلـى الرغبـة فـي معرفة حالة منار.

فوهـات المعـدن لا تَكَـلُّ ولا تَمَّـلُ، لكـن اسـتراحة لا بـد منهـا حتـى تُجـدّدَ الـنهش بجسـد الحيـاة فـي المدينـة. إنهـا تخـتلس وقتـاً تلملـم فيـه جراحهـا، وفـي غضـونه يقتـنص النـاس فرصـة تنقّـل حـذر بـين الأمكنـة، وهـي لا تخلـو مـن مغـامرة أكيـدة، وربمـا باهظـة الـثمن، إذا فاجأتهم نصال الموت.

غادرتنـا منـار، ومـن حافـة المغـامرة عـادت إلينـا. كانـت ملامحهـا أقـل تـوتراً، وعلـى صـفحات وجههـا إشـراقة تغالـب كـدر أيـام مضـت. وفـي حركاتهـا تنـاثرت خطـوط رسـمت لوحـة فـرح صـغيرة وخجولـة. دون أن أسألـها تأكـدت أنهـا ذهبـت إلـى مربعهـا "جبل النصر" وعادت منه إلينا، فدلفت إلى سؤالـها !

- ها.. كيف الحالة في جبل النصر؟

وهـي تشـرع فـي الـرد، قـرأت تحفزهـا للبـوح. مـن التماعـة عينيهـا بعـد إغماضـة خاطفـة انتشـرت أطيافهـا كأنهـا أجنحـة طيـور تهـم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بالطيران فقالت:

ـ ما القصد من سؤالك؟ وتابعت مبتسمة:

ربما أخطأت في العد والإحصاء، لكن مخاوف أخرى كانت تعصف في أعماقي، فتُدخلني في لعبة خطيرة ومرعبة.

"كان هناك، كنت أرغب في أن يهمس بتلك الكلمة قبلي. تأخر، قررت أن أقولها بعد أن زجرت خوفي. فانتظرت فجر ذلك اليوم، استيقظت على فجر مطعون من عمق الليل، وراحت المدينة تتكوم محطمة، فضاعت الطرقات، ولم يحضر كعادته لاستلام النشرة اليومية. عندها تسمرُّتُّ على بوابات الوقت تحت وابلٍ من شظايا الموت، وانشغلت أدقُّ عليها بحواسي، فعشت حرباً في حرب. هاجسي ألا تموت تلك الكلمة.. إن مات هو.. أو متُّ أنا.. متنا معاً.."

وابتدرتني بالسؤال :

ــ هل كان هاجسي شفيعاً لمبالغتي في العد والإحصاء، ولتشبثي باسم المكان بدل رقم المربع؟

تعثر صوتها ببحة بكاء، فغار إلى العمق دون صوت. أحسستُّ باندلاع مشاعر مختلفة، لملمت من ذاكرتي كيف تواطأت عليها في لعبة الإحصاء والمربعات، وقذفت به إلى حفرة سحيقة. ورحنا نتهيأ استعداداً لبدء عمل الفوهات المعدنية.

مضينا، وكبرت الحرب، دون أن أسألها:

"إذا كانت في مغامرتها الباهظة، عندما ذهبتْ إليه، قد لقّنتْهُ تلك الكلمة أو حتى همست له حروفها همساً؟".

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وليد مسعود ليس في أريحا

«أعـود؟ لا أدري. كالعـادة أرجـوك أن تهـتم بمـا يردنـي مـن بريـد (...) فقد أغيب طويلاً هذه المرة».

«قـال الـبعض إنـه هـاجر إلـى كنـدا أو أسـتراليا. قيـل إنـه قُتـل. قيل إنه عاد إلى فلسطين المحتلة سراً. المهم أنه اختفى».

وبقـي الغمـوض يلـف قضـية اختفـاء وليـد مسـعود. كـل التقـديرات وكافـة الاحتمـالات كانـت تصـل أحيانـاً إلـى أنـه مـا زال حيـاً. حتـى إن الـبعض حوَّلـها إلـى يقـين. لكـن ذات التقـديرات، وبعـض مطالعـات الـرأي، مـن أقـرب المقـربين، كانـت تفضـي إلـى العكـس تمامـاً. إنـه زال وانتهـى. مـات... صُـفي... قُتـل... استشـهد...انتحر. واحدة منها تكفي.

«هنـاك ألـف طريقـة يعـود بهـا الطـائر إلـى وكـره. ومـن هنـاك ينطلـق إلـى الفعـل. مهمـا يكـن. مـع زمـلاء لـه كثيـرين. فلتمطـر السـماء مـاءً. فلتمطـر السـماء نـاراً. إنهـا لـن ترهـب رجـلاً عَبَـرَ المـاء ولـم يغـرق. عبـر النـار ولـم يحتـرق. أو أنـه مـا عـاد يرهبـه أن يغـرق أو يحتـرق. لـم يعـد كائنـاً حقيقيـاً. ربمـا حتـى لنفسـه. أمـا لـ"وصال" أو لـ"شهد" فإنـه الحقيقـة الوحيـدة المؤمنـة عبـر المسـافات المناديـة عبر الفلوات والوديان والجبال».

منـذ ذلـك الـزمن بقيـت شـهد* محـور اهتمـام المتتبعـين فـي رحلـة البحـث عـن وليـد مسـعود. سـر اختفائـه ومعـاني غيابـه. تـارة تتكثـف المسـاعي المبذولـة، وتـارة تتعثـر وتتراجـع. فقـط "شـهد" وصـال رؤوف لـم تتخـلَّ لحظـة فـي حياتهـا حتـى الآن عـن التقـاط كـل موجـة أو تتجاهـل أدنـى إشـارة تفيـد فـي وصولـها إلـى الحقيقـة.. وهـي متيقنة بقوة الرغبة أن وليداً ما زال حياً.

* اسم الشخصية النسائية المركزية في رواية جبرا إبراهيم جبرا : البحث عن وليد مسعود. وكل ما بين قويسين هو اقتباس من الرواية المذكورة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

ولمّا أفادت وكالات الأنباء مؤخراً، أن غائباً قد ظهر، بعد اختفاء طال أمده، منذ عام 1970، ودخل إلى غزة في احتفال «العائدين» هبَّت شهد تبحث عن هوية المفقود الموجود.

سُرعان ما أوقفت رحلة بحثها هذه المرة. فالصورة التي نُشرت للغائب الذي حضر لم توضح ملامح الوجه تماماً. لكن لباس الشرطي على جسد رجل الصورة قطع أي شك لديها بأن الذي ظهر للوجود هو وليد المفقود. فلا يزال مفقوداً. وهي تعلم بثبات أن وليداً كان يكره وظيفة الشرطي. فأوقفت البحث عنه في صخب الأنباء الاحتفالية التي تتصدّر النشرات وتجتاح وسائل الإعلام. عادت شهد لأرشيفها، خيالاتها، ذكرياتها. سجلت نسخة من الكاسيت الهذياني الذي وجدوه في سيارة وليد الصغيرة يوم اختفائه الغامض والمحير. ولا تزال بين الحين والآخر تعزفه، تستمع إلى كل كلمة فيه. لتجد عمقاً جديداً للكلمات التي وردت فيه. وكأن الزمن يُعيد النظر كل مرة في محتويات أرشيف وليد وفي كلامه الذي وجدوه في الكاسيت.

عادت شهد لمملكة الكبرياء التي وردت الإشارة إليها في ما سُمي هذيانات وليد قبل اختفائه.

«انفجرت المياه وبدأ الطوفان، ولم يجد نوح من يسعفه في صنع سفينة فغرق الإنسان وكل ما صنع زوجاً زوجاً، أمّاه كيف تنقذين أولادك هذه المرة إلا بكبريائك الرائعة التي وزعتها عليهم جزافاً لا تخشين الإسراف لأن الكبرياء كان مملكتك الوحيدة، وعنادك يفتت الحجار، ويجفف البحار، ويملأ الجبال ينابيع، مهما قلت وكيفما قلته وجوداً يكتم دهشته لكثرة من عرفت من النساء باحثاً عن تلك التي لها عناد أمي وكبرياؤها ويزعم أنه ما عاد يفهمني وأنا الذي ما فهمت يوماً أحداً فلأجرب أن أحدد السؤال».

ثم بحثت في مذكراته متوقفة حيال رفضه للاسم الذي أراده له أبوه (فرحان) وللاسم الذي رغبت به أمه (خميس) ليرثه عن خاله. واختار اسم وليد متصادماً مع عمومته وأخواله. مكوناً

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وجوده ومحدداً النداء الذي يرغب أن يُخاطبه الآخرون به.

وجدت شهد في ذلك ومضة رفض للقيد والوراثة والاحتواء. رَفَضَ وليد فرُفضَ... وضع قدمه على درجات السلم الصاعد إلى مملكة الكبرياء فاهتزت ممالك الخنوع والهوان.

كانت تلك بداية الحصار على وليد مسعود... حياته... آرائه... ووجوده الكامل. انزلق إلى رد الفعل فاختفى أو انتحر أو غامر فقُتل.

وقع بين يدي شهد تقريرٌ صحفيٌ عن رجل ظهر بعد تخف طويل ومقصود، دام أكثر من عشرة أعوام. كان يتسلل إلى زوجته سراً كل شهر أو شهرين مرة واحدة تحت جنح الظلام. وها هو الآن يدرب الأطفال على اقتصاد الحجر وفن القذف بالمقلاع. ويتجول في الشوارع مع ولديه اللذين ظهرا إلى الحياة زمن اختفائه. لكن التقرير لم يُرفق بصورة له أو لهم جميعاً. جمعت شهد ما ورد في التقرير عن ذلك الرجل... عمره... قامته... عاداته وصفاته قارنتها بشخصية وليد وكادت تظنه وليداً. ولكن بعض المعلومات التفصيلية التي وردت في التقرير ذاته قطعت الشك باليقين أن الرجل ليس وليد مسعود وإن كانت بينهما قواسم مشتركة.

تلك الواقعة زادت أملها بأن وليداً لا يزال على قيد الحياة. وحادثة الرجل التي تضمنها التقرير يمكن أن تتكرر. بل لعلها تتمنى تكرارها ليظهر وليد حياً يُرزق.

لكنها عادت وفضلت بقاء وليد غائباً ومختفياً، رغم عشقها له، ورغم أن حضوره يجعلها تتأكد تماماً أنه لا يزال على قيد الحياة. لأنه بعد ظهور المتخفي الأول بهيئة شرطي، أُودع المتخفي الثاني، الذي ظهر، رهن الاعتقال في يوم الاحتفال نفسه، واستقر في الزنزانة الأولى في سجن أريحا.

عادت شهد تقرأ «هناك ألف طريقة يعود بها الطائر إلى وكره» ولكنها تعرف أن وليداً لا يختار وكراً في الحضيض والقاع. الأعالي والذرى نشيده ومبتغاه وأريحا، هي أخفض

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

مكـان فـي العـالم عـن سـطح البحـر. لا تصـلح لبنـاء أعشـاش النسـور ولا لتحليق الطيور ذات الأجنحة الجبارة.

سـألت نفسـها: "هـل عـاد وليـد حقـاً إلـى أريحـا؟ عـاد... لـم يعـد ... يمكن ... يستحيل".

تـذكرت أن وليـداً عـاد إلـى القـدس عـام 1967 بعـد سـقوطها ليـنظم عشّـاً لتكـاثر المتشـبثين بحـق الإنسـان فـي بيتـه وحقلـه وذكرياته وأحلامه.

قـرأت مقطعـاً آخـر فـي مـذكرات أصـدقائه «مـازال وليـد ضـحية ملابسـات مسـتمرة يزيـد مـن تعقيـدها قـدرٌ عـاتٍ وسـخيفٌ سـوف يلاحقـه» وتسـاءلت كيـف إذن تتناقـل وكـالات الأنبـاء أخبـاراً متكـررة عـن أن القضـية حُلّـت وزالـت ملابسـاتها بينمـا واقـع الحـال يقـول غيـر ذلـك حيـث الغمـوض فـي تزايـد يلـف وجـوده وحياتـه ويدفع إلى المجهول.

تسـاءلت شـهد: هـل اختفـاؤه المسـتمر دليـل علـى خطـأ العـالم كلـه، وكـذب وكـالات أنبائـه وهيئاتـه الإنسـانية والدبلوماسـية، زيـف أساليبها الحضارية الحديثة؟

ـ "لمـاذا وضـعتني يـا وليـد فـي هـذه المواجهـة المعقـدة والصـعبة المفتوحـة مـع العـالم والأحـداث؟ لمـاذا ذكرتنـي فـي كـل كاسـيتك يـوم "الـهذيان" الذي سبق غيابك أو اختفاءك؟".

وسـرعان مـا قـررت شـهد أن تـذيع نـداءً إلـى كـل الـهيئات الإنسـانية والاجتماعيـة والحقوقيـة، وإلـى الأفـراد والجماعـات التـي تهـتم بالبحـث عـن وليـد مسـعود. وأخـذت تعـد مسـودة النـداء فكتبـت: "لا يسـاورني أدنـى شـك أن نـدائي هـذا سـيلقى صـداه كمـا يجـب. لأن مـن المفتـرض إن واجـبكم يملـي علـيكم تلقائيـاً، البحـث عـن المفقـودين والمختفـين والغـائبين والمغيبـين. وذلـك دون الحاجـة إلـى نـدائي هـذا ولا سـيما أن ديباجـة بيانـاتكم و قـراراتكم، التـي تـذيعها هيئـاتكم المـوقرة، تتقـافز منـذ مقـدماتها حتـى خواتمهـا عبـارات تجعـل مـن يقرأهـا، يظـن بـاقتراب نهايـة كـل ظلـم أو عسـف بفعـل أعمـالكم الجليلة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وأرجو منكم، إن أردتم الشروع الجاد في البحث عنه، إجراء عملية تدقيق في المعلومات التي تصلكم قبل أن توافوني بها أو تنشروها. ولعل طلبي هذا سببه الكثير من التنبؤات والمعلومات، التي جاء فيها خلط مقصود يشوه حقيقة وليد، ويسيء إلى شخصيته التي أدّعي معرفتي بها جيداً. وسوف أرفق لكم في نهاية هذا النداء، تفاصيل دقيقة عن هذا الرجل، تبيّن صحة ما أدّعيه عن ذلك التشويه المتعمد الذي يسيء إلى شخصيته.

أيها السادة: لاشك أنكم تعلمون، أن علاقة شهد بوليد كانت تتيح لها معرفة روحية وجسدية وفكرية بالرجل المفقود. وحبذا لو حاولتم التأكد من ادعائي هذا بتكرمكم القيام بمراجعة كل الأوراق التي خطها بيده، وسماع صوته المسجل على الكاسيت يوم اختفائه. وإن وجدتم قيمة لنشرها وإذاعتها فذلك لا يضيرني. وتلك التفاصيل، المتعلقة بعلاقتي الشخصية الخاصة به، ربما تسهم بدعم مساعي البحث الجاد عنه إلى حين حضوره. كما أرجو لفت انتباهكم، بعد الاعتذار، إن كان فيه ما يخدش جدارتكم وأهليتكم، إلى فرق كبير بين حضوره وإحضاره، لأن وليداً من النوع الذي يَحضُر ولا يُحضَر. وأعتقد أن اختفاءه بوقت مبكر يفسر تمرده على إحضاره مكرها. أعتذر إن أسهبت، فالقضية تحتاج ذلك. ودعوني أذكركم بواقعة إصراره على اختياره لاسمه رافضاً اسم خميس واسم فرحان، غير مكترث بتلبية رغبات أعمامه وأخواله.

أما عن تلك المعلومات، التي أسميها تلفيقات وتشويهات، كما وردت في وكالات الأنباء، للادعاء والزعم باكتشاف أثر حقيقي له، فاسمحوا لي أن اعرض نماذج منها وباختصار.

جاءني من يقول إنه سمع خبراً عن شخص يشبه بصفاته الجسدية الخارجية من نبحث عنه. وانه حضر احتفال أريحا وهتف بحنجرته للانتصار وبحماسة. إلى أن أصيب، لشدة انفعاله بالفرح، بنوبة قلبية أودت بحياته. وأضاف: إن تجنب الوكالات تكرار إذاعة هذا الخبر كان حرصاً على المعنويات العامة في لحظة «الانتصار» وكي لا تضعف قيمته.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

زعم آخر ألقى به أحدهم أمامي، وادعى أنّه ورد في نشرات أخبار رسمية. ملخصه أن وليد مسعود ظهر فجأة في عاصمة أوروبية وهو يتقدم بطلب إلى الجهات المعنية، يعلن فيه عن رغبته في الدخول إلى مناطق الانسحاب الإسرائيلي. وذهب فشاهد ما شاهد ثم أصيب بانتكاسة نفسية، أدت إلى مرض عصبي، وأفضت إلى ضياع عقله فأودع إحدى المصحات المتخصصة.

النموذج الثالث الذي أرغب في عرضه عليكم مكتفية به حتى لا أثقل عليكم. هو من النوع الذي لا يسيء إلى شخصية وليد وقيمه وأفكاره ومبادئه. وإن كان حسب تقديري يروي قصة أشك بصحتها، بل إنني متيقنة أن وليداً لا يقدم على ما جاء فيها.

قال لي أحدهم سراً وهو من محبي وليد، والمشغولين في معرفة أبعاد قضيته، إن وليداً تسلل مرة أخرى إلى الوطن، لاعتقاده أن ما حصل ما كان مرغوباً. بل هو لا يشكل ولا درجة واحدة في سلم «مملكة الكبرياء» ولذلك قصد ذات المغارة التي التجأ إليها طفلاً، حيث داهم أسرته خطر الاجتثاث. وهو يعتكف فيها اليوم، مع أفراد قلائل، لينفذ عملاً عظيماً وبالسرعة القصوى. دعوني هنا أبدي رأيي مستبعدة ما ورد في الرواية، لأنني أعرف أن وليداً لا يكرر تجربة، دائماً يجدد فكره وسلوكه، بل طالما حدثني عن الشرط الإنساني للارتقاء والتقدم مؤكدا ضرورة التعلم من خبرة التجربة، إن أردنا الارتقاء على طريق أهدافنا المشروعة والنبيلة.

أما أن يكون الآن، يُعدِّ، من مكان اختفائه الطوعي، لعمل كبير، فلا اعتراض لي على ذلك. وإن كنت أحذّر من تأويلات المهتمين لمعنى العمل العظيم، الذي يستعد له وليد أو يبحث عن مقوماته. أظن أن الوقت قد حان في هذا النداء لأقدم لكم ما أظنه يساعد في مهمة البحث عنه. فاسمحوا لي أن أعود بشكل سريع، إلى الماضي، لأضعكم أمام صفحات مبالغ فيها كتبت عن شخصيته ورواها ذووه وأقاربه ومحبوه، مدفوعين بالعاطفة نحوه، معتقدين بها محفزاً للتضامن مع قضيته، ظناً منهم بأنهم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

يعجلون بالتعرف إلى سر غيابه، ولإنهاء الغياب بعودته وحضوره.

وإن حق لي الآن رغم الواقع المفجع، ومع كامل حبي لوليد، أن أفصح عن حقيقة قبل فوات الأوان، «ووليد كان يحذر دائماً من فوات الأوان فنصل متأخرين ولا يفيدنا طيران ولا أجنحة فتغزونا الغربان في عز النهار وحلكة الليل»، فأنني أؤكد أن نشر معلومات تحوّل الرجل إلى أسطورة في وقت نحاول فيه الكشف عن مكان اختفائه، هو أمر يعيق عملية البحث الدقيق عنه. حلقات معقدة واجهت، لاشك، بعض المخلصين في البحث الجاد عن قضيته. وضعتهم أمام طريق مسدود، هذا من جهة، أو أنها ساقت بعض الباحثين عنه إلى الضلال عن شخصيته الحقيقية. فكثيراً ما انصبت بعض الجهود على تجميع المعطيات التي تتطابق مع ما نُشر عنه من وقائع مدعاة، أو توصيفات لشخصيته مبالغ في عظمتها، فوجدوا أنفسهم يتابعون شخصية، بل شخصيات، أخرى، ليكتشفوا بعد حين أن جهدهم لم يوضع في مكانه. هذا الأمر أدخل إلى نفوسهم بذور اليأس وثناهم عن مواصلة المهمة. ولا أخشى من القول: إن الغائب ضحية لجهد بعض الباحثين عنه أيضاً، وإن كانوا بنواياهم مخلصين لقضيته. هل من فائدة لتصحيح بعض الأخطاء التي وقع بها الباحثون عن وليد في السنوات الأخيرة؟ أعتقد ذلك. سأرفق إذن ندائي بإشارة إلى العبارات الملتبسة أو المعلومات الخاطئة التي كتبت حوله.

وإن وجد البعض في ذلك انتقاصاً من أهمية القضية فله ما يشاء. وواجبي أن أكون حقيقية وواقعية حتى أسهم في إنهاء المأساة. ويجب أن يعرف الجميع أن العاطفة الشخصية التي أحملها في داخلي لوليد تفوق ما يحمله أي فرد آخر. ولست متجردة منها ولا تزال محركاً لبحثي أيضاً. هدفي هو حضوره بشكل مؤكد، وحل قضيته، وهذا ما يدفعني لتوجيه عواطفي نحو هذا الهدف، فأجدني غير عابئة بحذف وشطب كل ما نُشر من معلومات أو تقديرات بعيدة عن الحقيقة.

لأن مقاربة صفاته الحقيقية الواقعية مع قضيته تسمح بالتعرف

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عليه. وإن كان الحرص على حضوره، من ذويه ومحبيه واعياً، فاطلب منهم قبول الشطب والحذف الذي أقترحه. ولا تنسوا أن إضفاء صفات غير واقعية عليه بحجة حث الجهود للعثور عليه، يضلل البحث عنه. وربما يزرع في طريق الوصول إليه بذرة النرجسية والغرور، فهو مثل أي إنسان، وبالتالي يتمتع باستمرار غيابه رغبة منه في إطالة المعاناة التي تحيط به مع ما يلزمها من التباس وغموض حول القضية.

سوف تتعثّر جهود البحث في المستقبل، تماماً كما تعثّرت في الماضي منذ غيابه، إن أغلقت عواطف محبيه عقولهم عن الواقع والحقيقة، وإذا استمروا متشبثين بما ورد حوله من صفات أسطورية. حتى وليد نفسه سوف تأخذه متعة الغرور والسوبرمانية المسقطة عليه وينسى حقيقة شخصيته، وأسباب دخوله في الاختفاء والغياب".

أنهت "شهد" صياغة ندائها. عادت تدقق في كلماتها قبل أن تذيعه على الهيئات والمؤسسات والرأي العام. وأرفقت النداء بكل ما تعرفه من حقائق عن الغائب المفقود. وشطبت الصفات المبالغ فيها عن حقيقته، في كل الملفات والوثائق التي طالعتها عنه.

ومع تسرب أخبار عن قرب إذاعتها للنداء الذي أعدت مسودته، انشغل الجميع بالتكهنات في ما سيتضمنه نداء شخص هو الأقرب إلى وليد معرفة بشخصيته.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الكعب

ــ إلــى متــى ســتبقى عنيــداً يــا ســليم؟ مشــكلتك تتفــاقم مــع تقــدمك بالعمر !

ــ لاحــظ يــا ســليم مــا لاحظنــاه ونحــن فــي رفقتــك داخــل المدينــة. فأنــت والله تصــطدم بالنــاس المــارين فــي الشــوارع، وقبــل أن ينبســوا ببنت شفة، ترفع صوتك الحاد قائلاً:« العما مو شايفين».

ــ «مــا كــل مــرة تسلم الجــرة يــا سليم؟». هــل نسيت كيــف نجــوت مــن الوقــوع بــين أيــدي شــرطة الآداب؟ تــدخُّل الأوادم وأولاد الحــلال أنقذك من علقة، شبه مؤكدة، على باب الفرن.

ــ يومهــا اختَصَــرتِ المــرأةُ، التــي لاصــقتَ جســدَكَ بمؤخرتهــا، الشــر كمــا يقولــون. وكــان بودنــا أن تلحــظ كيــف أعــذرك الأوادم بعــد أن مســحوا وجهــك بنظــراتهم، وركزوهــا علــى عينيــك، ليهمســوا بعد ذلك بــأذن المــرأة وبعــد أن تأكــدت بعينيهــا مــن صــحة مــا همســوه لهــا، هــدأ غضــبها مــن اقتحامــك لمؤخرتهــا. لعلهــا اعتبــرت الحادثــة دون قصد ولا عمد.

ــ مســكين كعــب فــردة حــذائك الأيمــن. التهمــة دائمــاً توجههــا لــه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

وتحمله المسؤولية عن سقطاتك ووقعاتك. تستبدله عند الحذاء، أكثر من مرة، وعند أكثر من حذاء. حينها تصدر حكمك على الحذَّائين بالغش، وإن كنت رحيماً عليهم اتهمتهم « بالغشمنة» في المهنة.

يَباسُ رأس سليم وعناده يفوقان كل وصف. لكن الله يسَّر له أصدقاء وزملاء واسعي الصدر ومتسامحين إلى أقصى حد. دليل الراوي في ذلك قصص وحوادث كثيرة بيّنت أن سليم جمع نشاف الروح إلى يباس الرأس والعناد، فأصبح وضعه لا يُطاق وراحت مشكلته تتفاقم.

رفض سليم، بعد زيارة أكثر من طبيب عيون، استخدام النظارة الطبية لتصحيح انحراف بصره. ذهب أبعد من الرفض الشخصي حين انبرى لإقناع الآخرين، من مستخدمي النظارات الطبية في الإقلاع عنها، مدّعياً، حسب سعة علومه ومعارفه، أنها تؤدي إلى المزيد من تفاقم ضعف حاسة البصر وانحرافه.

يزعم الرجل معرفته الواسعة والشاملة. من التاريخ إلى الفن والطب واللغة والاستنساخ. لكنه مولع إلى حد الهبل بسير الزعماء الكبار والأحداث الحاسمة في حياتهم.

تَحمّل جلساؤه، من الأصدقاء وزملاء العمل، الكثير الكثير من البدع في تفسير ما تعرض له المشاهير. دائماً مصادره الخاصة وتحليلاته الثاقبة (أو هكذا يحس ويدَّعي). أما عندما يحتدم النقاش معه، سنرى أن حاسة سمعه هي الأخرى، تتعطل مؤقتاً. هدرات صوته وموسيقاه الحادة الشبيهة بالزعيق، كانت تسد الطرق كافة إلى أذنيه. صَمْتُ أصدقائه عن الكلام تخفيفاً منهم للتوتر والاحتدام، يتراءى له دليلاً إضافياً على ما يدعيه من سدادة الرأي وصحة الموقف، ليزهو بنفسه دون أن يدري وقوفه على ركام من الأوهام.

استشاط سليم غضباً ذات مرة بعد أن سمع صديقاً يعلَق على روايته، قائلا: إنها خيال بخيال. تصلح للسينما أو التلفزيون. واعتبر الأمر شتيمة (يعرف الراوي أن سليم كان يعتبر كلمة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

خيال تساوي الكذب). وكاد الموقف يقترب من الانفجار لولا حنكة أصدقائه وتهذيبهم ورأفتهم بحالته. واضطروا إلى الاعتذار منه والصمت على ما ساقه من حكاية عن سبب طلاق نابليون من زوجته (عشيقته) جوزفين.

حسب رواية سليم أن عرّافة غجرية، تنبأت لنابليون، وهو ماضٍ إلى واحدة من غزواته، ارتباط مصير زواجه من جوزفين، بمصير زجاجة خمر قدمتها له العرّافة. عاد نابليون إلى قصر جوزفين، ذهب أولاً يبحث عن الزجاجة، اكتشف أنها كُسرت. وكان طلاقه من جوزفين.

قال أحد أصدقائه: مشكلة البصر عند سليم غدت خواءً في البصيرة. صححها صديق آخر فقال: إن خواء بصيرة سليم هو السبب في تفاقم وضع بصره وانحرافه.

رغم اعتذارهم، وترطيب الأجواء، والإيحاء له بقبول ما ساقه من كلام عن جوزفين ونابليون والعرّافة. بقي متوتراً، كالعادة حين يتوتر، يرتطم بالأشياء، يتعثر بالطرقات، يضع قدميه في حفرها. ثم إن سقط، وهو غالباً ما يحدث، يشتم الحفر في الطرقات، أو يتهم الكعب المخلخل لفردة حذائه الأيمن.

تردَّد على حذائين كثر. بدل الكعب بكعب. أصلحوا له حذاءه ودقّوا عليه مسامير قوية ومواد لاصقة. بقيت مشكلة سقطاته وعثراته ملازمة له. واستمر في مكوثه على موقفه من النظارة الطبية. النصائح التي كررها له أصدقاؤه دائماً تلقى الصد والرفض. وبقي دون نظارة طبية.

كعب فردة حذائه الأيمن هو المشكلة بنظر سليم. لم يتزحزح عن موقفه. الطرقات أيضاً كان لها نصيبها من الشتائم والتوبيخ.

واستمر الوضع مع سليم على هذا الحال سنين طويلة، كان أصدقاؤه خلالها متسامحين ومهذبين وودودين. جل همهم أن لا يلحق علاقتهم بسليم أي أذى يتداعى إلى القطيعة، فكانوا يحملون واجب نزع فتيل الانفجار إثر كل احتدام في الحديث والنقاش.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أخيراً وقع المحظور، رغم كل ما تمتع به أصدقاء سليم ومُجالسيه من سِعة صدر وقدرات على ضبط النفس. ولو أن سليم يقوم بمراجعة نفسه لتمنى في دواخله أن يحصل ما حصل معه مؤخراً في وقت مبكر. لكن أزمة رقاب الإوز كانت قصة نوعية، تداعت إلى انفجار الموقف مع أصدقائه، دون قصد وبلا إرادة منهم. في تلك الجلسة التي سَنُطلق عليها اسم جلسة رقاب الإوز، تداعت الأحداث، تلقائياً، إلى إذعان سليم في استخدام النظارة الطبية. (أذعن سليم لرأي الحذَّاء أخيراً، لكنه حذَّاء لماح ونبيه).

رقاب الإوز، البري تحديداً، تحوي أنسجتها على أحماض معقدة التركيب. تجعل من يستهلكها بكثرة شرساً متوحشاً وعدوانياً عنيفاً. هكذا رأى سليم الأمر، حين جرى النقاش مع جُلسائه حول بطش وقسوة الزعيم السوفياتي ستالين.

فهو، حسب سليم، كان يفطر صباحاً، كل يوم، على إوزتين بريتين، والرقاب كانت الأكثر رغبة وإثارة لشهيته عن سائر أعضاء الطائر البري.

ـ لماذا لم ينصحه أطباؤه في الامتناع عن أكل رقاب الإوز يا سليم؟ قال أحدهم.

تقبل سليم السؤال ولم يمتعض من صاحبه، أما الجواب عن السؤال بقي غائباً. واقتربت لحظة الانفجار حين تنحنح صديق آخر ممهداً بنحنحته لرغبة في الكلام:

ـ لماذا لم يبدل ستالين وجبة الغداء بالإفطار؟

توغل سليم أكثر فأكثر فأدخل ثقافة الغداء الإنجليزية، التي هي حسب رأيه، تنص على أن الإفطار هو أكثر الوجبات أهمية للإنسان. وستالين، حسب سليم، كان حريصاً على صحته.

ـ حريصاً على صحته

ـ لماذا لا تقول أنه كان يتعلم برقاب الإوز، كيف يفطر برقاب رفاقه قبل أن يتغدوا به؟..

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

انفجـرت الصـدور بالضـحك دون قصـد. لملـم سـليم شـتاته علـى عجـل وغـادر. ونـام ليلتهـا قلقـاً متـوتراً، لأنـه عـاد إلـى البيـت حافيـاً، بعـد أن سـقط سـقطة مؤذيـة، جعلتـه يخلـع الحـذاء ويضـربه مـرات علـى الأرض ثـم يتأبطـه عائـداً إلـى البيـت، مبكـراً فـي الصـباح التـالي إلـى حـذَّاء غيـر كـل الحـذائين السـابقين، «فكـان الحـذَّاء الأخير... وأذعن له سليم»

قال له الحذَّاء وهو يرمق عينيه ويضبط شارة يده:

ـ أنـت تؤشـر بعيـداً عـن موضـع الكعـاب علـى الـرف... ثـم تطلـب فـردة كعـب أيمـن. الكعـب هـو الكعـب للفـردة اليمـين والفـردة اليسـار، أنصحك بمراجعة طبيب عيون.

ظهر سليم في مساء ذلك اليوم والنظارة الطبية على عينيه.

أمـا أصـدقاؤه فسـتلُفَهم الحيـرة وهـم يسـألون ويتسـاءلون عـن تلـك القـوة المجهولـة التـي اسـتطاعت تليـين رأس سـليم وكسـر عنـاده المزمن.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

من أوراق عوض الغبساوي

صوتي ليس صوتي

رن جرس التلفون فظننت أنني واهم. تابع رنينه فانشغلت باستعادة صوتي قبل أن آخذ السماعة. بين رنة وأخرى رحت أختبر قدرة حنجرتي على رفع حروف الكلمات الخامدة في غور سحيق.

التقطت السماعة بعد تأكدي من أن بقايا قوة في جوفي تمكنني من النطق. ألو... ألو...

خاطبني المتحدث، الذي عرفت صوته على الفور، بالدانيماركية. سألته بالعربية عن حاله وصحته. صمت برهة ثم طلب مني على الفور أن يتحدث إلى عوض. لم يصدق أنني هو! ظنّني أمازحه، علماً أن تثاقُل صوتي لا يشي بالمزاح. نظرت إلى قامتي أدقق بعوض الذي هو أنا فلماذا لم يصدقني مخاطبي؟

تجاوز هو ظنّه بالمزاح وسألني:

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ـ أهذا صوتك؟

و أجاب نفسه بنفسه: لا... لا لست عوضاً.

قفّزت بدوري مسافة في قاع الذاكرة واحتضنني مخيم برج البراجنة وغرفة الصف في مدرسة وكالة الغوث كانت حجتي. فمنها ذكّرته بما يؤكد له أنني عوض... لا أحد غيره. فانفجر بضحكة بعد تنهيدة وهو يسمعني أُطلق عنان الكلمات دون فاصل لكنه قاطعني ليطالبني بالكعكة التي سرقتها منه وهو متسمر قبالة معلم درس التاريخ يجيب عن سؤال وجه إليه.

تأكد أنني عوض. ثم بدأ يحقق معي في حالتي التي ارتسمت في مخيلته عبر السماعة عندما شك أن صوتي ليس صوتي. أوضحت له أنني منذ أسبوعين لم أتكلم مع أحد ولم يكلمني أحد.

زفرات

صادقتها وصدّقْتها. أقرأتها صفحات نفسي بضجيجها وصفائها، آلامها وآمالها، حرمانها ومخاوفها، رحلاتها ومحطاتها، عبثها والتزامها، توقها وانتظارها، غربتها واغترابها.

قالت لي:

كنت أبحث عن الإنسان فوجدته فيك ! ثم أخذت تقرعُ حضارتها المجوفة والرتيبة وأثنت على سحر الشرق الذي أتيت إليها منه.

بكيت لها آلام الشرق الساحر، وأظهرت لها دهشتي بعقل الغرب وعلمه ونظامه. فأطلقت هي زفرات ضيق من دهشتي بعالمها.

في جولة لنا مع الجغرافيا التبس عليها المكان الذي أتيت منه.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فكيف آتي منه وأنا لا أعرفه كما لا أستطيع الذهاب إليه.

عادت هي إلى منطق الواقع والمحدّد والملموس. فأفهمتها أنني لا ألعب معها لعبة سحر شرقية. فأنا أتيت من الغبسية دون أن أعرفها والمحطة التي حصلت منها على تذكرة السفر عابرة إلى كل الجهات باستثناء جهة واحدة هي مكاني الأول.

في تعرينا سألتني:

ـ كم عملية جراحية في هذا الجسد؟

قلت لها جراح جسدي ليست من مبضع طبيب. زفرت زفرة أخرى ظنت أنها دعابة. رسمت لها عدداً من أنواع القذائف وشظاياها وبينت فروقاتها حسب المنشأ ومكان التصنيع.

راحت تلامس سكة جرح برقة وحنين، دلّ عليهما ارتعاش أصابعها وهي تنتقل فوق تضاريسه. والدهشة المتطايرة من نظراتها حرت بها، أهي من كثرة العلامات الفارقة، أم انها بيان تعاطف مع جرحي الموزع على مساحة جسدي.

حين أخذت تتدخل في ترتيب بيتي الصغير أدهشتها صورة جدي الواقفة على الجدار. وألحت عليّ أن أعيد منتجتها لإزالة بقعة صغيرة عنها ، كانت تبدو متفارقة مع اللونين الأبيض والأسود. رفضت اقتراحها ، ولم أعلّل رفضي ، لأنني شعرت باللاجدوى من إخبارها أن لون البقعة المفارق على الصورة يحمل ذكرى دلف مطر مخيم برج البراجنة من سقف «الزينكو» المنخفض فوق جدران ما يُسمى بيوتنا في المخيم.

في عرينا كانت تقول لي:

ــ انصهارنا يولد روح حضارة جديدة تقتحم جليد الشمال المزمن. فَجّرْ بركانك. لكن نظراتها كانت تتعثر بالبقعة المفارقة في الصورة المُعلقة على الجدار. وآنَ أحس بانشغال عينيها بصورة جدي ينخمد بركاني لأنني أعرف أنها سوف تعود وتطالبني بإعادة منتجة الصورة بالتكنولوجيا الحديثة لإزالة بقعة اللون الدالف من سقف المخيم.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

قرار اتهام

فاجـأني فـي غرفتـي رجـال بأزيـاء مختلفـة، تحـدثوا إلـيّ أو رطنـوا بلغـات عـدة، رافقـتهم دون اعتـراض إلـى صـالة واسـعة. لـم أذكـر أن واسـطة نقـل حملتنـي إلـى ذلـك المكـان. جـواد أبلـق يمتطيـه فارس متراخي الأطراف خائر القوى.

وضعوني قبالتهما وأعلنوا:

ـ أنت شاهد لا تخف!

ـ هل تعرفهما؟

تسـمّرت ذاهـلاً وأنـا أبحلـق بالفـارس والجـواد. لـم أسـعفهم بجـواب وأنا أحس رمالاً تملأ فمي وحلقي.

ظنّـوا أننـي لـم أفهـم لغـة خطـابهم. انفتح الجـدار علـى رجـل يحمـل مبخـرة ويلـوح بهـا ومـا لبـث أن ثرثـر بالعربيـة مكـرراً سؤالـهم ومحاولاً طمأنتي:

ــ لا تخـفْ... نعـرف أنـك بـريء، أنـت شـاهد فقـط فـي قضـية تخدم القانون.

وراح يحشر همسات حادة في أذني:

ـ أنا مثلك.. من قومك..

حوّمـت نظراتـي فـي الصـالة، فمـا رأيـت سـوى عينـي الجـواد باتسـاعهما ، بينمـا جفـون الفـارس قـد تراخـت لتضـيق مسـاحة عينيـه. أما بقية الرجال فكان يفصلني عنهم سواد نظاراتهم.

هـز مبخرتـه وتمـتم. حمحـم الجـواد وصـهل صـهيلاً تنبعـث منـه رائحـة القـوة. واختلسـت ابتسـامة خاطفـة مـن الفـارس فبـدا سـعيداً

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لشدة الصهيل.

ابتعد صاحب المبخرة ، فتراجعت الرائحة الخانقة عن أنفاسي. وانتصب الجدار فغيّب تماماً ذلك الرجل، فأصبحت قادراً على نطق الكلمات.

كرورا بأيديهم الإشارة إلى الجواد والفارس. حضّرت نفسي للإجابة، وآنَ أردت إرسال نظراتي إلى المتهمين لأبادلهما الثقة، اختفيا من الصالة فبدا سقفها فضاءً مفتوحاً أمامي.

اقتربوا بنظاراتهم السوداء يفتشون ثيابي وجسدي ويسألون:

ـ أين المتهم؟

أنت أصبحت متهماً في التكتم على فراره.

ـ عليك إحضاره حالاً.

انتعشت أوصالي وغمرني دفءٌ عارم. فتفجّر صوتي:

ـ ما التهمة التي توجهونها للفارس؟

قذفوا أمامي كتباً وأوراقاً، في بعض صفحاتها، تحت عبارات كثيرة ، خطوط حمر، مُشدّد على بعضها، وبلغات عدة ردّدوا:

ـ «إنه كاتب من العصور الغابرة استدعيناه لتصحيح أفكاره العتيقة واستبدال أبطال رواياته وحذف الأحداث التي لم تعد تناسب روح العصر. رفض وقال إنه بحاجة لشاهد يعرفه ليوافق معنا على ضرورة حذف كل ما تحته خط أحمر. فاستدعيناك لتشهد بأن العصر تجاوز أفكار الكاتب ورواياته»

عاودني صقيع واختناق ويباس. بذلت جهداً لأفك أعضاء جسدي من تجمّدها. ثم حاولت الاقتراب من الجدار فوجدته جليداً. قبضتُ على راحتي ، استجمعتها وأطلقتها بلكمات على صقيعه القاسي ، فبدأت أشم رائحة ذوبانه. واستيقظت غارقاً في نزيف من ماء جسدي، وقد ابتلع الغطاء السميك ثم أمضيت ذلك النهار ساهماً متأملاً في توجس وذهول.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

مساحات

لا يزال التحقيق في ضياع حرف النون مفتوحاً.

أعادت إليَّ مرافعات حادثة حرف النون ومجرياتها، التي كانت أمي الطرف الأساسي فيها، ذاكرة عقود بعيدة مضت. كان والدي رحمه الله، حين يقع النقار بينه وبين أمي، يختم العلقة من جانبه قائلاً: والله إنك أقوى من هنري كتن، وحنا عصفور.

عندما نشبت أزمة حرف النون، تأكدت أن والدي، كان على عفويته وبساطته، مصيباً، من إحدى الزوايا بالطبع، في إقامة الشبه بين أمي من جهة، وهنري كتن وحنا عصفور من جهة أخرى.

اسمان ترددا على لسانه في كل علقة له معها. كان نقارهما مزمناً، شبه يومي. أما اهتمامي وأنا أشهد الشجارات المزمنة، قد تحول إلى فضول التعرف على الاسمين الحاضرين على لسان أبي في كل علقة له معها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

كنت أحس تلقائياً، أنه يحسم الحق إلى جانبه، كما يعتقد، حين يقول لها: إنك أقوى من فلان وفلان. خاصة أنه كان يضيف ذلك إلى عبارة (ما أشطرك في تسفيط الكلام).

أطلعتني، بعد أن سألتها، أن الاسمين اللذين يرددهما أبي، لاثنين من أشهر رجال المحاماة في مدينة حيفا، في الثلاثينات والأربعينات، قبل الرحيل عنها.

في ذروة بعض العلقات، كان رحمه الله، يغدق بالرحمة على روح جدي لأمي، لأنه لم يُدخلها إلى المدارس. فهي حسب رأيه، كما كان يعبر عنه (لو أنكِ تعلمت في المدارس لخربتي الدنيا وعملتي العجايب).

لم أكن أنتبه كثيراً لهذه العبارة حين يرددها. ربما لأنني لم أصدق أن أمي تجهل فك الحرف. كيف تكون أمية وأنا أراها تقرأ آيات السور القرآنية من صفحات المصحف؟ أقصى ما كان يتبادر إلى ذهني حين سماعي تلك العبارة، أن أبي كان يتقصد اتهامها بالجهل. أما أنها تقرأ الكلام المكتوب، فلا شك عندي بذلك. المصحف بين يديها تقرأ فيه كل يوم تقريباً، ولو لدقائق قليلة.

مثل أي قارئ مُجدٍّ ومتمرس، كانت تفتح المصحف، بعد تقبيله ثلاث مرات، والرابعة بجبهة رأسها، على صفحة حددتها مسبقاً بورقة صغيرة أو بريشة نعام، تعتقد أنها لطائر مبارك. تبسمل وتتلو الآيات بصوتها، بينما شاهدها يتحرك فوق السطور وكأنه يتزامن مع إيقاع الترتيل، كيف تكون أمية إذن؟

إصرار أبي على إغداق الرحمات على روح أبيها، لأنه أصاب في منعها من الذهاب إلى المدرسة (حتى لا تُخرِّب الدنيا وتعمل العجائب) حفزني، بعد طول وقت، وكثرة ترداده للعبارة، إلى مراقبة أمي وهي تقرأ، ومتابعة كل حركة منها، وهي تجلس بخشوع والمصحف بين يديها.

تسلَّل الشكُّ إليَّ، حين تابعت أكثر من مرة حركة شاهدها فوق كلمات السطور، وبمسامعي كنتُ أُصغي إلى صوت تلاوتها،

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

فضبطت حركة إصبعها تسبق مرة ما يصدر بصوتها من كلام، وتتأخر مرة أخرى عن سرعة التلاوة بصوتها وشاهدها يكون أبطأ سيراً من ترتيلها.

اعترفتْ لي أنها لا تفك الحرف، كما أنها لم تدخل المدرسة أبداً. هي تحفظ عن ظهر قلب، سماعياً، عدداً من آيات السور القرآنية، بعض السور كاملة الحفظ لديها. تعرف رقم صفحة البداية والنهاية لكثير من السور. تبدأ بالقراءة بصوتها وبحدس داخلي تحرك شاهدها على السطور، تتوقف عند كل وقفة مثبتة بين الآيات. هاجسها في ذلك التلازم بين التلاوة واحتضان المصحف، المزيد من الخشوع وبلوغ الطمأنينة والفوز بالثواب.

تقرأ ولا تقرأ !

كيف يُشبِّهُها رحمه الله، بأشهر رجال المحاماة في حيفا (أسرَّت لي مرة أنها تفتخر بأن تكون مثلهما) فهما كانا يهُبَّان للدفاع عن الشباب العرب الذين يقومون بأعمال الشغب والخروج على قوانين حكومة الانتداب وأحكام الطوارئ.

كان أبي يَصدُقُ حين يؤكد أنها لم تتعلم في المدارس. ومعه بعض حق في إقامة الشبه بينها وبين هنري كتن وحنا عصفور أشهر المحامين في حيفا. أما المسؤولية عن النقار والشجار بينهما والعلقات المزمنة التي أذكرها، فتقع عليه بنسبة كبيرة، حتى لا أقول بشكل مطلق (الفرويديون سوف يقولون هذه أوديبية، أمسكناك متلبساً بها).

أصابَ في التشبيه لكنه أخطأ في غرضه منه رحمه الله.

غرضه كان تحميلها المسؤولية عن كل علقة، وتبرئة نفسه من أي ذنب.

نعم أصاب في التشبيه من زاوية نظر، لعله لم يقصدها. ذلك ما تأكدت منه حين اندلعت أزمة حرف النون بعد سنين طويلة من رحيل والدي. فهو لم يكن طرفاً في هذه العلقة.

حرف النون هذا، انمحى عن ورقة تسميها أمي جرياً على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

المألوف بـ«الكوشان»، (وثيقة ملكية الأراضي المسجلة بأسماء أصحابها). لم تقبل فكرة عبث السنين بالحرف الذي أكل بغيابه نصف دونم من الأرض كما هي مساحتها المثبتة في خانات «الكوشان».

كيف ينمحي حرف النون، أو يضيع، عن موقعه في خانات الكوشان؟ وهو الحرف الأول من كلمة نصف، التي يسبقها في نفس الخانة واحد وعشرون و...(...صف دونم).

أمية مدرسياً، نعم ! لكنها تعرف، دون أن تتعلم فك الحروف في الكتب، حروف وأرقام وخانات ما هو مطبوع أو مكتوب في أوراق «الكواشين». خاصة ما يدل منها على عدد أو رقم له صلة بالمساحات. المتر والدونم ونصف المتر أو نصف الدونم تحفظهما في ذاكرتها، وتعرف تماماً موقع قطعة الأرض التي يرمز إليها على الورق.

لم تتنازل أبداً عن ضياع حرف النون من موضعه في خانة «الكوشان». أصرَّت، حين اكتشفت غياب الحرف، أن يداً لا تعرف قيمة الحرف، عبثت به. وصبّت جام غضبها على الصحفي الذي كان قد استعار الوثائق منها، لأغراض إعلامية، لم تستسغها كثيراً. فهي منذ البداية، خلال الأخذ والرد معها لإقناعها بضرورة إعارة الكواشين للصحفي، غمزت من قناة الشك (لتكونوا بدكم الكواشين عشان التعويض اللي عم بتحكي عنه الإذاعات والتلفزيونات). حين وافقت، طلبت عودته لاستلام «الكواشين» بعد يومين، مشترطة إعادتها خلال أسبوع لا أكثر.

أعاد الرجل «الكواشين» ووقف في قفص اتهام بحذف أو محو حرف النون من كلمة «نصف».

حاول وهو شاخص العينين محمر الوجه، أن يخفف وقع ما حصل، فاقترح عليها إعادة كتابة الحرف بالقلم، وينتهي الأمر. رفضت واعتبرت الحل تزويراً.

دخلت بدوري إلى الميدان علني أنجح في احتواء غضبها، مهيئاً نفسي لأتلقى قسطاً من هجماتها، أتقاسمها مع الصحفي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

المتهم، رأفة بحاله من ورطته التي أوقعه غياب حرف النون فيها. قلت: ربما كان الحرف ممحواً قبل إعارتك «الكوشان» للرجل!

دحضت حجتي، لم تقبل بها كاحتمال. كشفت عن فحصها الدقيق لتفاصيل أوراق «الكواشين» في اليومين اللذين طلبتهما مهلة قبل إعارتها له. وشرعت تشرح طريقتها في فحص وتحليل الوثائق.

ثنيات الورق الناتجة عن طي الصفحات معدودة لديها. أطوال الثنيات محسوبة بتقدير دقيق. مواضع الاصفرار الزائد، شكل البقع التي سرى فيها اللون الباهت محفوظة كصورة في ذهنها بكل وضوح. حتى الأطراف التي تآكلت منها بعض الميليمترات تعرف مكانها على كل ورقة.

نجحتْ إذن في التأكيد على فقدان حرف النون من مكانه في «الكوشان» بعد إعارة الأوراق للصحفي، الذي اضطر لاستهلاك علبة سجائر بشكل متواصل وهو يبحث عن حجة تبرئ يديه من الاتهام.

نشَّفت ريقه وخنقت أنفاسه.

سايرها إلى أبعد حد من الاحتمال. تلقى هجماتها دون محاولة منه للتحدي أو الرفض. استجابة لغمزات وإشارات وجهتها إليه، دون أن تلاحظني، تنازل حتى الخط الدفاعي الأخير بقوله: ربما انمحى الحرف عندما كانت الأوراق معي، لكن صدقيني إن حصل ذلك فهو مُنزّه عن أي نية للإضرار بالوثيقة وحروفها.

هدأت قليلاً لكنها لم تقتنع، تمترست وراء فكرتها أن لا شيء يجري هذه الأيام مصادفة، أو دون قصد. ثم ما لبثت أن حولت غياب حرف النون عن مكانه في «نصف دونم» إلى قضية شرعت تُروِّجها على مسامع أبناء طينتها وتحذرهم (ما عاد بها الدنيا أمان. لا تسلموا شيء لحدا. كله خداع. أوراقكم خلوها بعبكم وصدوركم. لا تعطوها لمين ما كان).

و لا تزال قضية حرف النون مفتوحة لديها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

كــان أبــي رحمــه الله موفقــاً فــي تشــبيه أمــي. رحــل قبــل نشــوب معركة الحرف الممحو عن ورقة «الكوشان».

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

المقعد الفارغ

صفاوة الماء قرَّبت الماء إلى دهشتنا، وخدعت العمق الغامض في عيوننا، فالتهبت الأشواق في أجسادنا لمعانقة الماء.

لم يكن النبع الذي يكابد معاركة الصخر مخصصاً للسباحة. فالبحيرة صغيرة والعبث بمائها غير مأمون. في عمقها خبأت أحزمة عفتها تذود بها عن دوام شفافيتها ونقائها.

لكننا نعشق الماء، وننتظر لحظة للسباحة فيه.

قفزنا من الباص، تساقطنا من درجاته إلى الأرض، تراكضنا نلحق برغباتنا. أمرنا الأستاذ بصرخات مدوية:

ـ ممنوع النزول إلى ماء البحيرة يا أولاد. انتبهوا!

وأشار بإصبعه عبر شفافية وجه البحيرة إلى نباتات ليفية خضراء بمحاذاة حدود الماء وشروشها في عمقه.

خوَّفنا منها. وصف لنا تشبث نباتاتها، والتفافها حول من يعلق بها، وابتلاعه غريقاً في القاع.

هددنا بالعقاب إن لامسنا الماء، خفنا من عقابه، وما أرهبنا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

شرحه عن خطر الموت إذا سبحنا.

لعبنا بالكرة، وفي دواخلنا نار الشوق إلى السباحة. تبادلنا الإشارات ننتهز أية فرصة يدير ظهره عنا، يتلهى، يبتعد. تراكضنا مع الكرة، تدافعنا، شاطها ابن الأستاذ قوية، حلَّقت، ابتعدت تدفعها الريح نحو البحيرة، سقطت في الماء وخلفها، عند أول الماء سقطت فردة حذاء قدمه التي شاط بها الكرة.

سافرت الكرة إلى العمق فوق المويجات. وامتلأ الحذاء بالماء فغاص نزولاً إلى القاع.

أرغى الأستاذ وأزبد:

ـ ألم أنبهكم؟

تسمرنا كل في مكانه. اقترب ابنه منه، ونحن قبالتهما. مال بعنقه يلامس خاصرة أبيه. ربت له على ظهره وسألنا:

ـ من منكم شاطر بالسباحة يا أولاد؟

تسارعت دقات قلوبنا من لهفتنا، نبتت راحاتنا مرفوعة في الهواء، لعلعت صرخاتنا للتطوع.. أنا أستاذ.. أنا أستاذ!

تعرينا من ثيابنا قبل الأمر والاختيار، وقذفناها مهملة فوق العشب والتراب.

تفحَّصَنا بعينيه، صال وجال فوق مساحة أجسادنا، تنقل بين سفوحها، ثم توقف عنده.

وناداه:

ـ أنت يا حسين...

قفز حسين فرحاً، رقص في الهواء. وعلى صفحة الماء كان ظل ابتسامته يسبقه إلى العمق، ملوناً صفاء البحيرة ببريق وردي، تاركاً لنا صدى جلجلة الماء الذي علا في الهواء عندما شقه جسد حسين النحاسي.

غاص حسين إلى القاع، اقتربنا إلى حد الماء وأسقطنا نظراتنا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

خلفه، هرجنا مبتهجين بسرعة غوصه وقوة إصراره.

غبشت عيوننا، وتشوشت خطوط نظراتنا نحو جسده. صارت حركاته أسرع وأكثر نشاطاً. توقعنا أنه التقط فردة الحذاء، أوحت لنا بذلك حركة ذراعيه تهصر شيئاً في القاع.

انبجست سحابة عكرة، وصعدت أكثر، لفَّت نصف جسده من رأسه حتى صدره. قلنا ما أشطره في الغوص، حسدناه على شجاعته.

تهادت حركة الجسد، وتمادت مرتفعة عكرات الماء من القاع، التهمت الجسد كُلَّهُ. وانقطع اتصال نظراتنا مع أي جزء من لونها النحاسي اللماع. توقفت كل حركة في القاع. هدأ العراك. اختفى عنا حسين تماماً وذهب صفاء الماء عن سطح البحيرة. انخطفت ملامحنا، كمدت وجوهنا، انطفأ بريق عيوننا. ثم تكدر وجه الأستاذ، راح وجاء وهو يضرب كفاً على كف. ثم هرول مسرعاً.

هاجمنا بعد قليل زعاق جارح. أطلت خلفه سيارة إسعاف. وقبل تحضير رجال الإنقاذ حبالهم وكلاباتهم. كان الجسد الوردي يطفو ويتقلب بكل اتجاه، بينما وجه الماء كان مغبراً ساكناً حزيناً بلا حراك.

بعد قليل كانت قطعة منا ممددة على الشط. حملوه في السيارة. وجمعنا نحن ذكراه في ثيابه. وبكى ابن الأستاذ وفي يده فردة حذاء واحدة. في اليوم التالي جثم الصمت في حجرة الدرس. امتلأ الفراغ بالغياب.

بحثتُ في غضون الصمت المرعب عن حسين، تلفّتُّ إلى مقعده جانب مقعدي، شهدت هوة سحيقة مظلمة. بقيت ساهماً خارج المكان، شنَّفت أذني طرطقة على ماسورة أحد المقاعد، وقعت عيناي على نظرات ابن الأستاذ الحائرة، طأطأ رأسه، طاردته بنظراتي إلى حيث اتجه برأسه.

هناك أسفل المقعد كانت قدماه تختبئان داخل حذاء جديد لماع.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

قبلة على الوجه في الملصق

بأصابعه الطرية الناعمة استمر يحرك قطاره. كلما تهادت سرعته يُعيد شحنه ويتابع القطار سيره في رحلة تتسع وتبتعد دون أن يغادر حدود الغرفة الصغيرة. آن ارتطامه بالجدران يعاود الطفل توجيهه فوق المساحة الملساء.

لا تنفرج الجدران أمام حركة قطاره لينطلق به إلى المدى الذي يحب، جدران صمَّاء وثابتة. وسقف المكان يحاصر سحابات دخان التبغ. فيزداد الصمت حرقة في العيون. لكن الطفل يلاعب الصمت، لا يعبأ بما يجري، يستعد لاستقبال أبيه بعد غياب طال. كان يتحرك في الغرفة فرحاً، فقد اتسعت اليوم بعد أن أُخليت من الأثاث، ورُفعت عن أرضها الحصيرة البلاستيكية. صارت مساحتها أكبر من الممر الصغير الضيق الذي كان ملعبه قبل تبدل الغرفة واصطفاف الكراسي إلى جدرانها الأربعة. واتسعت مساحة شوقه لقدوم أبيه.

في مساحة انتظاره الفَرِح، كان انتظار آخر للجالسين على الكراسي بصمت جليل، ومن عيونهم تطفح النظرات الحزينة. هم

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أيضاً ينتظرون أباه! انتظارات كثيرة في مساحة واحدة.

فيها وجد الطفل فرصة لإطالة رحلة قطاره، وحرية عجلاته في الانسياب والدوران على بلاطات الغرفة الملساء العارية. وتأكيداً على الجديد في لعبته، التقط عقب سيجارة لم تنطفئ وثبتها في مقدمة القطار لينفث دخانه كما قطارات الرحلات البعيدة. ودون أن يتوقف، راح يتساءل:

- وين بابا؟ ليش ما وصل؟

ولا ينتظر رداً، فهو يسكب نظراته على لعبته، فيما عيون الحضور في صمت شبه متحجر، ووجوههم مطرقة في وجوم. فيردون بزفرات تفيض حسرة وتغمر سحابات التبغ برائحة الفجيعة. بين دورة وأخرى لقطاره، يعيد سؤاله الذي لا جواب له، وينظر إلى الملصق الورقي:

- هذا بابا...!

بعد طول انتظار تجاوزت أيامه أسبوعاً لم يحضروا جثمانه. راح الحزن يتراكم في الدروب الضيقة، تنم عنه جدران الحي ومنعطفات الأزقة وواجهات الدكاكين الصغيرة، يطل عليها وجه أبيه من ورق الملصق. أما الوعود اليومية التي تزرع «الأمل» فكانت تتحول آخر الليل حصاداً من اليأس لموت بلا أثر بلا بقية. آن تطاول المأتم الدائم والمفتوح، كان الطفل يتحرك شوقاً لعناق أبيه، ويتطاير فرحاً بقطاره، وكأنه يتمرن على تقبيل الغائب المنتظر، طفق بين دورة وأخرى لقطاره، يقبل وجه أبيه على الملصق، يعانق الورق.

في اليوم العاشر للانتظار، أبحرت العيون إلى عمق الحزن، تتمون جرعات مرة من قهوة لا تتوقف. ومن قاع الحسرة المغلولة بانتظار طال... وطال... تفشى القول همساً:

المنظمة تتكفل نقل الجثمان... خمن بعضهم أن الموت لم يكن على نحو ما جاء في الأخبار. تخلخل الصمت الحزين، وارتفعت الوشوشات أولاً بأول حتى باتت مسموعة للجميع، دارت في

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أمـداء مـن الشـكوك بحادثـة المـوت وأسـبابها وزمانهـا ومكانهـا. تهزهـز سـتار الصـمت الـواجم، ثـم تلاشـى بفعـل صـرخات تطالـب بدفنـه فـي أي أرض. ومـا أجـدى فـي التخفيـف منهـا، ادعـاء منـدوب المنظمـة أن فحوصـات طبيـة تجـري علـى الجثمـان المنتظـر، هـي السـبب فـي تـأخير تسـليمه إلـى ذويـه بعـد نقلـه مـن بلـد بعيـد. علـى العكـس زادت الحركـات اضـطراباً داخـل غرفـة العـزاء، وتقاطعـت الأصوات الصاخبة.

لـم يتوقـف الطفـل عـن لعبتـه، وإن راح يصـغي مـرات، ثـم يتـابع شـحن قطـاره. فقـط عنـدما انـدلقت القهـوة المـرة علـى أرض الغرفـة، مـن تـوتر واضـطراب الحاضـرين، تقلقـل جسـد الطفـل لأن قطـاره قد تبلل، وصرخ:

- غير أقول لأبوي بس يجي.

وتساءل: "ليش تأخر؟"

ثـم مسـح قطـاره، وبأصـابعه عـارك «الزمبـرك» فـانطلق القطـار تدفعه يده، وبالأخرى مسح دمعة سالت على خده.

وكـأن مـا جـرى لدلـة القهـوة المـرة، آذن بـانفراط عقـد الانتظـار الذي طال، بعد أن انقطع حبل الأمل.

ومـن جديـد عـادت الأشـياء تتنـاثر فـي الغرفـة الصـغيرة، انضـاف إليهـا ملصـق فـي إطـار بشـريطة سـوداء عُلِّـق علـى صـدر الجـدار المقابـل للبـاب، وعـادت الحصـيرة البلاسـتيكية تغطـي أرض الغرفـة مما ضيق مجال حركة قطاره فبكى احتجاجاً:

- "ليش عملتو هيك وبعد بابا ما جاء؟"

أخـذ قطـاره، ضـمه إلـى صـدره، وانزويـا معـاً لصـق الجـدار، فـي الممـر الضـيق، فخشـعت نحـوه عيـون تطـل مـن رؤوس ملفعـة بالسواد، ثم دوى بكاء جماعي، نما متصاعداً إلى نواح مخنوق.

تسـمّر الطفـل فـي مكانـه وانطفـأ بريـق الفـرح فـي عينيـه. وألقـى قطـاره علـى أرض الممـر ثـم ركلـه بقدمـه، وراح يطيـر نظـرات طائشـة خـارج أي اتجـاه، ثـم رحـل بعينيـه إلـى عمـق الوجـوه الغارقـة

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

بالــدموع تحــت غطــاءات ســود. لكنــه مــا لبــث أن انحنــى ليلــتقط قطــاره بحنــو، يشــحنه، ويطلقــه فــي الممــر الضــيق ليتحــرك فــي مساحة لا تتعدى مساحة الحزن.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الوثبة الأخيرة

يكفي حضُورُكَ... راحتاك مشتلُ أزهار.. ضياءُ عينيكَ ولا كُل الشموع.. وفي آخر المكالمة بثت له قبلة ملأته فرحاً وفوَّرت أشواقه.

باعد السماعة بفتور وبطء، ثم غادر مسرعاً على أمل العودة إليها في تلك الليلة. كانت ليلة عيد ميلادها.

***

حزمة الضوء المنبعثة من سيارته، كانت استثناءً في ظلام المدينة الموحش. لا وعد للمدينة يخرجها من رعب ظلامها الصامت، سوى قصف يجدد الرعب بعد أن يبدد ضجيج الصمت.

بين رعب الصمت ورعب القصف كانت بيروت تسافر. بينهما كان وسام يحاول امتطاء صهوة فرح في تلك الليلة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

اخترقت عجلات سيارته خبث الهدوء المخيف. وترددت في مسامعه آخر الكلمات إليها في الهاتف: "سأتأخر قليلاً...لا تقلقي.. سأحضر وأزهاري تسبقني إليك...ولو زهرة واحدة... لا تكثري الحامض على التبولة...الجينز والقميص الزيتي أتركيهما في إجازة... البسي أجمل فستان... سأحضر ولو تأخرت...سأبقى معك طويلاً".

***

طالت رحلة المدينة في الحرب. مطارح اللعب، الرقع الفسيحة، تحولت حفراً أو خنادق، ما عادت صالحة لدحرجة كرات الطفولة. أصبحت أهدافاً محتملة لمدافع الحرب القوسية والمباشرة.

فتش الأطفال عن لعبة بعيدة عن رصاص القنص المباشر، بعد سقوط العشرات منهم، تعلَّموا خارطة الفضاءات المقنوصة، أفقياً وعمودياً، وأنشأوا خطوط عرض وطول مقسومة إلى خطرة وآمنة. في الثانية شيَّدوا مطارح لعبتهم!

دحرج طفل علبة بيبسي كولا فارغة وعنانها خيط في يده. تقلبت العلبة، زحفت إلى الخلف بسرعة، ضاعت طلقة القناص هباءً.

بدَّل القناص وكره، ومن طلاقة الموت، فجّر حقده صلية من رشاش يلاعب الطفل، فتوقفت العلبة الفارغة مع صمت نبضات قلب فارسها الصغير.

نقنصهم أيضاً...

كان لسان حال غالبية المحاربين في محاور المدينة.

***

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

تـداخلت متزاحمـة ومتعاركـة عـدة أصـوات فـي رأس وسـام وهـو ينهب بسيارته شوارع المدينة، قاصداً محور جماعته.

انهمــرت كلمــات رفاقــه فــي دماغــه، متداخلــة، متصــادمة، متقاطعة، غامضة مشوشة، ترن وتتلاشى، ثم تعلو من جديد.

ــ علــى كــل المحــاور يــردون علــى القــنص بــالقنص... أرواح المـدنيين عنـدنا ليسـت رخيصـة.. أطفـالهم ليسـوا أولاد سـت ونحـن جاريــة... يجــب أن نقنصــهم... الدشــمة محصــنة لا نســتطيع إصابتها.. والهاون لا يؤثر فيها..."

كان وسام يعارض القنص علاجاً للقنص.

علـى لوحـة السـرعة فـي السـيارة، كانـت علامـة سـباق بـين الفـرح مـع ديمـة وبـين خوفـه مـن أخطـاء رفاقـه علـى المحـور. وبـين ضـجيج أصــوات الرفــاق وهمســات ديمــة "يكفــي حضــورك... راحتــاك... عيناك...". انشرحت روحه.

الدشــمة كانــت هدفــه. والدشــمة محصــنة. تــدميرها يتطلــب الوصول إليها.

القــنص أســهل، . كــان رأي جماعتــه. وهــدَّدوا بمباشــرة قــنص المدنيين والأطفال انتقاماً لضحايا منطقتهم من الأبرياء.

تلجلجــت الأفكــار. اضــطربت النفــوس. فــي لحظــات الصــمت انفتحــت علبــة الســجائر، قــدحت الولاعــات، وشــحطت عيــدان الثقاب، وقرقعت البنادق من تقبلها النزق في أحضان الجلساء.

همســت ديمــة: "يكفــي.." ردَّ عليهــا: "لا تقلقــي.. سأحضــر ولــو تأخرت..". سرت في أرجائه نفحات قبلة الهاتف.

***

ترأس وسام المجموعة التي ستدمر الدشمة.

تقــدَّم، قفــز، اســتند إلــى جــدار.. وجــدار... تبــادل مــع رفاقــه

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

شارات الحركة. في الأمتار العشرة الأخيرة، كانت الوثبة الفاصلة. قبل أن يَثَب، أبطأ السير، توقف قليلاً في خربة بناء تهدمت جدرانه، انحنى يعاين أرض الحديقة المهشمة، عاد منتصباً، أشار إليهم بالوثبة الفاصلة. لوَّح بقبضته، وثب بعلو قامته واستقامتها. لعلع رصاص في الفراغ، شقَّ الصمت. نزف الليل ناراً حارقة. عاركت قامة وسام السقوط، دام ظلها يحضن تقدم المجموعة، دوَّى انفجار في الدشمة، انهار الإسمنت وتقطعت أوصال الوكر المصفح.

شاغلت ديمة قلقها ببعض الأغنيات. داعبت أزهار فرحها. مسحت ولامست فراغ مقعد وسام. قابلت بفستانها المرآة، أطل عليها وسام وهي تمكث قبالة وجهها.

عاين الأطباء الجسد، كان مخترقاً برصاصات متنوعة، ومن جهات متعددة قال أحدهم:

ـ لو انحنى قليلاً نجا!

ردَّ آخر:

ـ حتى لو انحنى علُّوَ قامته لا يسعفه.

أكد ثالث: نجاته بانبطاحه وهو لم يفعل ذلك.

***

خرجت ديمة تبحث عن سر تأخره في كل الجهات، وعلى مفارق المدينة. أما أطفال الحي في المحور، فقد غيروا خطوط الطول والعرض في مطارحهم دون أن يعرفوا ثمن انهيار الدشمة. وربما امتزجت رغباتهم الغامضة بأحزان مشابهة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

جسر الصمت

إلى سيدة الوقت

التي تسبق الطريق إلى الطريق

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

جسر الصمت

قبل أن تتساقط حبيبات الندى على جفاف أرض الدبكة، كانت قطعان الغبار تتصاعد وكأنها تستفز الإيقاع البطيء للأقدام، هازئة من خبطاتها الفاترة. حين راحت الأجساد ترتفع في حماسة ثم تهبط مدوّية، صار نضح العرق من الأجساد قطرات تتزاحم ثم تهطل لتغسل فضاء الدائرة من الغبار وترطب الجفاف في أرض البيدر.

رغبة الالتصاق الحميم لأكف الشباب مع الصبايا أبقت الأيادي متحاضنة متشابكة، فمانعت الانشغال بمسح العرق المتدفق من الوجوه وهمدت تماما ذرات الغبار التي كانت تغبش الجو الفاتر والدبكة في أولها.

لم أكن أفضّلُ موقعي لصقها في قوس الدبكة. شرعت تتحداني بحركاتها المتشامخة. فهي بين إيقاع خبطة وأخرى، أخذت ترتفع إلى أعلى، تتمايل في صعودها، تنحني بجذعها، ترقّصُ كتفيها وتسرح بناظريها إلى فضاءات بعيدة عن مكامن

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

نظراتــي. فاتهــا أن اختيــاري لمكــاني قبالتهــا، هــو اقتــراب منهــا، فمنــه كنــت أســتجمع بنــاظري لوحــة ألقهــا، المنتشــرة مــن أطيــاف حركاتها الرشيقة.

طفـح الفـرح مـن صـخب حركـات الأجسـاد، وكـان دوي الدبكـة يتصــارع مــع عربــدة أمــواج البحــر وهدراتــه. اجتــاحتني قشــعريرة بَـرْد فجــأة آن سـقطت نظراتــي فــي هاويــة مــن فــراغ. اعتقــدت أن عينــي قد خـذلتاني. حـدقت بمكانهـا، تأكـدت مـن غيابهـا، ظننـت أنهـا ربمـا غيّـرت موقعهـا، فسـربلت قـوس الدبكـة برشـقات مـن نظراتــي بحثا عنها. عادت عيناي خائبتين لغيابها عن كل المواضـع.

صــارت حركــاتي مضــطربة، تشــي بارتبــاك وفتــور، وبمزيجهمــا تخلخلـت الحماسـة فـي قـوس الفـرح، وبـدأ إيقـاع الدبكـة يفقـد اتسـاقه وانسجامه.

حاصـت عينــاي فــي فضــاءات المكــان تشــقّان عــن حيــرة. قفــزت بهمـا فـي كـل المفـارق. مثـل خليـة نحـل راحـت نظراتـي تحـوم علـى كـل المنافـذ، حطّـت عنـد أعلـى قمـة فـي القريـة، بعـدها يتحـدر الـدرب إلى حرش، هل ذهبت هناك؟

لــيس مــن عادتهــا اختصــار الفــرح، ومــا كــان عهــدي بهــا أن الرقص يتعبها. لامستني ظنون شتّى.

هـل انتهـزت انشـغال الكـل بـالعرس لتختلـي مـع عاشـق بعيـدا عـن الأنظار؟

خطــوت خــارج حيرتــي. عــدتُ إلــى ذاكرتــي مســترجعاً ســنين بعيـدة، بعيـدة لكنهـا أعلـى مـن غمـرة النسـيان، أيامهـا كـان الكبـار والصـغار ينشـغلون فـي البحـث عـن غفـران عنـد هبـوط الظـلام. بعـد تكــرار تأخرهــا، اكتشــفوا أنهــا تنفــرد إلــى البحــر، وتختلــي مــع موجاته، خاصّة في مساءات المدّ.

مــن وهــدة فــي الــذاكرة انبثقــت صــورتها أمــامي، علــى رمــل الشاطئ تعجنه بيديها وتشكّله فتخلق لعبتهـا.

كنــا نبنــي دُمانــا مــن الرمــل ثــم نهــدمها عــابثين بتكويناتهــا

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

وأشكالها. غفران هي الوحيدة بيننا التي لم تكن تفعل مثلنا، ترفض العبث بما خلقته يداها. نذهب نحن وهي تبقى حتى يحط الليل، لتحمي جسد الكائن الذي علقت فيه الروح من أطراف أصابعها. تتأخّر عنّا فتسري في القرية مخاوف شتّى.

لما عرفنا السر صرنا نسرع قبل شروق الشمس ناحية البحر، نضمر النوايا لهدم ما صنعت، نتفاجأ برحيل اللعبة دون دليل لعراك مع موجة، وبلا أثر لندبات في الرمل، تدل على عبث من مجهول. بقايا من لعبتها فقط كنا نجدها في مواضعها.

صدفتان في موضع الأذنين، حبتا عنب سوداوان في محجر العينين، وورقتا ليمون صغيرتان ترسمان الشفتين، والأنف ثمرة بلوط صغيرة. مَرّة وجدنا عصا صغيرة في كف اللعبة، وفي الأخرى باقة أزهار برية هجعت ليلتها بأمان مع رطب الشاطئ.

تطاولت عربدة الموج لتطغى على صخب الدبكة. توقّزتُ لأغادر خلسة، وحتى أخرج من دائرة الفراغ الذي اجتاح المكان بعد غيابها. كانت حواسي شبه معطلة، أو أن أثر الوجود عليها قد انعدم. في حضرتها كان القمر يسكب فضته، يعانقها مع حرارة أنفاس الدبكة، فتنبجس من قامتها ظلالُ أنثى أسطورية تصغي لنداءات البحر. أيقنت أنها استسلمت لنداءات الموج، تاركة المكان يسبح في فراغ.

قلت لنفسي:

ـ ذهبت تخلق كائنها وتُودعُه موجات البحر!

شرعتُ أراقب انزياح النظرات عني، كنت أتوهم أن كل العيون ترصدني. تجاسرت فهرّبت يدي من مشبكيهما. خطوت إلى الخلف، وقد أخليت دواخلي، إلا من صدى هدير البحر، وخلف ضلوعي دقات تتسارع وتعلو، كأنها صرخات مخلوقات حبيسة، خلف أسوار صلدة، انتفضت تطالب بحقها في حرية الركض إلى كل اتجاه.

ركضت. استقبلني أفق البحر، وتهادت خلفي ضجات الحفل.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

كـان العمـق البحـري فـي تلـك الليلـة سـاكناً، يخضـبه حـزن مـن غلالـة سـحاب جففـت عـن صـدره التماعـات القمـر. سـاورني الشـك بـان الحـزن السـاكن فـي عمـق البحـر خديعـة، فـالموج الهـادر فـي بـدء الليل وشى بالسر.

قارنـت البحـر بهـا، تـراءت لـي بحـراً آخـر يصـمت فـي السـطح وفي العمق يجلجل ويزلزل.

غمرتنـي الحيـرة وتلبسـني السـؤال: هـل ذَهبَـتْ إلـى البحـر تبادلـه الأدوار، أم تأخذ منه وتعطيه الأسرار؟

تابعـت الخطـو، عـدوت، عـدوت، بـالأفق البحـري تعلقـت. شـعرت بـأن الـزمن يخـادعني، يضـيّع زمنـي، فأنـا مـن بـدء الخلـق فـي هـذا الـدرب مشـيت. ومـا زال الرمـل المتراخـي يباعـد موجـات الشاطئ عني.

خلفـي أحسسـت النظـرات تُغـرس فـي ظهـري لتكشـف عـن دربـي، ثـم تطـاردني تبحـث عـن آثـار خطيئـة. وانبجسـت أمـامي صـور شـتى، فـرس صـهباء ولـدت مـن بطـن سـحابة سـوداء، فـوق جناحيهـا قـارب مـن عـاج، حطّـت فـوق الرمـل، صـهلت فأشـادت ميناءً ألقت فيه القارب.

انشـق الرمـل عـن جـدول مـاء صـاعد لملاقـاة الأنثـى الأسـطورية. اهتـزت أرجـائي لمّـا ارتسـم الطوفـان أمـامي، ولـم أشـهد غفـران تصعد ظهر القارب.

أيقظنـي زخُّ رصـاص لعلـع فـي عـرس القريـة. أطلقـت خطـاي أعاجـل زمجـرة البحـر لألحقهـا وأصـعد نفـس القـارب معهـا. جسـت المـاء بقـدمي اليمنـى وبـالأخرى عبثـت بثنايـا الرمـل، صـفعتني موجة، لفّتني حتى وسطي فتراجعتُ قليلاً.

كـان البحـر وحيـداً والليـل يكابـد هـوج الـريح ويهـزأ مـن قلقـي. قفـزت أقصـى مجـال للرؤيـا أفـتش حـدر الجبـل الشـامخ عـن ومـيض حياة أو أثر للخلق. لم تظهر لي غفران.

انسـحب المـوج المجنـون عـن انحـدار الجبـل قلـيلاً، بينمـا بانـت

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

غفـران تعانقهـا موجـة وتـدحرجها معهـا نحـو العمـق. لوحّـت ذراعـيّ ومن أحشائي صرختُ، بحثت عن فرس القارب وجناحيها.

قبضـت الـوهم، لكـن مـن رحـم البحـر رمـح صـعوداً جسـدٌ أبَنوسـي عـارٍ، تحـت شـفيف المـاء بـدت غفـران عـروس خيـال بثـوب زفـاف سحري. تسمّرتُ مكاني ورقبت المشهد عن بعد.

تلاشـى مـن سـمعي دوّي الدبكـة. هجرتنـي القريـة تتـابع فرحتهـا، وبـدوري رحلـتُ أبحـث عـن فـرح مجهـول، أتعقـب غفـران البحـر وأرنو طقوساً لم تؤلف من قبل.

حطّـت قـدميها علـى رمـل الشـاطئ، اسـتلقت فوقـه، أخـذت تدغـدغ بقايـا صـخب المـوج بأصـابعها، مثـل امـرأة تهدهـد طفلتهـا، أو أنثـى تسـكب آخـر رعشـات النشـوة، علـى همـدات الشـهوة فـي الجسـد الـذكري، تهـزم قوتـه الوحشـية، كحطـام الموجـات علـى الجسـد البنـي الساحر.

اسـتلقى المـاء علـى أطـراف أصـابعها، وضـجيج البحـر غفـا فـوق وسـادتها، برهتهـا شـقّ القمـر غلالتـه يكشـف عـن وجـه البحـر الفضي، فانزلقت باقات ضياء منه على الجذع الأبَنوسي.

قريبـاً منهـا أصـبحت، ظهـرت هامـدة مثـل البحـر. لـولا صـلاة النهـدين إلـى أعلـى وهبوطهمـا لتخيلـت الجسـد غريقـاً لفظتـه أحشـاء البحر على الشاطئ.

انتفضـت تخفـي النهـدين بـذراعيها. التفتـت نحـوي وهـي تقـارب فخـذيها حتـى اللصـق، ثـم انخفضـت إلـى أفـق البحـر، تتـابع رحلتهـا بصمت، فانطويت أنا في لذة الخشوع.

تطـاول... تطـاول زمـن الصـمت، مشـيت بـه أخـبُّ علـى مـاء فاتر، أقلبه لأفتح نافذة للكلام في جداره.

على شط بحر الهوى غنّيتُ...

تأخر رجع الصدى...

تلاهثت أنفاسي تتحرش سطوة السكون.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

بعد عصور رتلت غفران:

ـ هل تسمع صمتي؟

قذفتني إلى بحر الذهول. تململت وحاورت ذهولي في طقس الصمت. ثم انسحبت من دوامته إلى مدخل القرية أزرع فيه انتظاري. هناك كان الفراغ يملأ الأمكنة ويطوّق الحَواس.

لما لاحت لي أطياف قامتها العارمة تشق الطريق، دبّت الحياة في سمعي وبصري. قبل خطوة من طول انتظاري بادرتها:

ـ بعد صخب خشوعك للبحر انتظرتك تعودين بقصيدة شعر!

أنشدتني:

ـ عانقت الصمت لتقرأني... تنبشني... وتفك غموضي...

وسألتني:

ـ هل ستكتب عن كلمات الصمت وسر خلوتي إلى البحر؟

عدنا كلٌ في زمن لنخاتل رَصْدَ الفضول، ومضى العرس بنا، وتداعت الأفكار.

وقفت على عهد أن أزجر كلماتي في أدراج السر، حتى تبوح هي عن ليلتها الصامتة في مضاجعة البحر.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

السطح الفضي

كانت الشارة الضوئية حمراء. السيارات متوقفة، أمّا المشاة مثلي فراحوا يعبرون مسرعين. عددت الخطى أسابق الأخضر. وسّعت خطوتي أهمُّ النزول عن عتبة الرصيف إلى الممر، قاصداً الرصيف المقابل في الجهة اليمنى للشارع.

قبل مجيء الأخضر، تسمرت قدماي من انجذاب نظراتي إلى اتجاه آخر على الرصيف.

كانت أطيافها بين الحشود العابرة طوَّقت كل الاتجاهات لتفتح واحداً قزحي الفضاء.

رفرف قلبي، انصهرت نظراتي، تحرك الدم في عروقي، يحثني نحوها. تحرّكت لأعبُر وأتبعها، أوقفني الأخضر، وعويل السيارات قَطَعَ مساحة عبوري، وبَتَّ ذراع شرطي المرور الأمر.

عَبَرتْ هي، صَعدتْ إلى الرصيف المقابل. اتجهت يساراً، تابعتها أدحرج نظراتي خلفها، ثم بدّلت اتجاهي الذي كان مقرراً قبل أن يأسرني اتجاهها، بعد انبلاج فضائها في زحمة العابرين.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أقنعت نفسي بتأجيل إحضار الغسالة من ورشة التصليح لأكمل مشواري نحوها. وإن تأخرت عن إحضارها فمشادة أخرى صغيرة مع زوجتي، لا تلبث أن تنفضّ بوعد أكيد في إنجاز المهمة في اليوم التالي.

تباطأت الألوان في تناوبها على الشارة الضوئية. ازداد ضغط قدمي المتوثبتين للقفز، فتحشْرَجتْ حصى الإسفلت تحتهما.

كلما ابتَعدتْ عن ناظري، أخذ يغزوني إحساس بأن تواطؤاً يجري بين الشارة الضوئية وذراع شرطي المرور، هدفه تسخين الدم في عروقي، والتلذذ الماكر بالصوت المسموع لِوَجيبِ قلبي.

طال زمن البرتقالي على الشارة، وتكاسل الأحمر. بينهما أنزلت رأس قدمي على حافة الممر، بينما الأخرى متحفزة مثل وضعية المتسابقين في الأولمبياد قبل إشارة الانطلاق.

صعدت إلى رصيفها، اقتفيت إيقاع خطاها. من شعاع أطيافها رحت أستبصر موقعاً لقدمي حتى أضبط اتجاه خطواتي. كان الرصيف مزدحماً، الناس فيه متعاكسون، متقابلون، متواربون، متناسقون، متلاطمون أحياناً كثيرة.

حشود أعاقت خطاي، ألقت بي نهب حيرة ممزقة، بين الإسراع نحوها دون التفات، وبلا اهتمام بتقلبات أمواج الحشود، وبين الإبطاء في العدو خوفاً من عثرات أو تصادمات، لأنه حينها سوف أخسر المسافة التي أبذل لاختصارها، فأفقد متعة التواشج مع هفهفة قمزاتها.

على رؤوس أصابع قدمي مشيت لأرتفع بقامتي كي أشبك نظراتي مع حدودها فوق الحشود، حتى أتابع نقلات قدميها وألتقطُ ضوءَ مسارها.

أخيراً نجحت في تقريب المسافة نحوها، عشرات الأمتار فقط بيني وبينها، من هناك هدهدتني شارة ضوئية أخرى، اشتعل فرحي للونها الأخضر يُسمّر المشاة ويحرك البسمات على وجوه سائقي السيارات وهم يخترقون الطريق.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عند الشارة ستقف... هكذا حدثت نفسي. وفي وقفتها قبل نوبة اللون الأحمر، أصل إليها. تنفستُ الصُعَداء للأخضر هذه المرة، عوضني عن اختناقي من سرعة غيابها عند الشارة السابقة.

قبالتها عن بعد، لاحت لي نظرات القادمين في مواجهتها، لم تكن نظرات عابرة. تخيلت أن العيون تثبت برهة عند قامتها، وبعضها تعاود الالتفات إليها بعد اجتياز نقطة التلاقي بها.

آن اقتربت منها أكثر، اجتاحني هاجس خيانة الشارة الضوئية قبل وصولي. تمنيت دوام نهب السيارات للشارع بقوة تطيل زمن اللون الأخضر على الشارة.

على مقربة منها غرقت في دهشة غامضة. بدت لي وكأنها في ذاكرتي منذ آلاف السنين. حرثت جرود ذاكرتي ألوان ثيابها. من تنقيلها لحقيبتها بين كتف وآخر، تشكلت في مخيلتي لوحة أرعشت روحي. وفي مساميّ انساح ذهول يقطر لذة، حين فتلت عنقها برشاقة، كي تعيد ما انسدل من شعرها على طرفي عينيها.

استطال الأخضر، أو هكذا توهمت لإرضاء رغبتي. تجاذبتني الأحاسيس والمشاعر إلى معارج شتى، لكنني لم أقف حث الخطى لمتابعة سرعتي نحوها.

كنت أرى الحشود ولا أرى أحداً بذاته !

استوقفني فجأة وبإصرار. خلخل لحظتي، شوش ذاكرتي. صمتُّ برهة، عرفته دون أن أعرفه. ابتسم وعاتبني على النسيان. شد على كفي بين راحتيه. صعّد ابتسامته إلى ضحكة مسموعة. أما أنا فكنت غارقاً في بحر من خجل وحيرة وضيق. بادر هو كي يرفع الحرج عني، فأعادني إلى المزاح في نوبات الحراسة الليلية، قبل خمسة عشر عاماً، في زمن الخدمة الإلزامية. ذكّرني بامتناعي عن نطق كلمة السر ليسمعها الحرس المناوب.

وقتها كنت أستفز الحرس بصمتي، الذي لم أكن أغادره إلا بعد سماعي قرقعة أقسام البندقية بين يديه، فأنطقها بعد إيصاله إلى ذروة التوتر، وحين يسمعها تنطفئ ضرامة النيران في دمه.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

عرفتــه تمامــاً، جاملتــه بكلمــات متنــاثرة، وأنــا أكــتم ضــيقي. ثــم قـدّرت أن حيـرة نظراتـي وزوغانهـا وهـو يحـدثني بشـغف وحـرارة، ربمـا هـي التـي عجّلـت مـن وداعنـا مـع عبـارة "خلينـا نشـوفك...- إنشاء الله – إنشاء الله".

انطلقــت مســرعاً لأعــوض خســارتي المســافة فــي الــزمن المسـتقطع. كـان الأخضـر علـى الشـارة قـد غـاب وعـاد مـن جديـد. وصـلت إلـى الشـارة فكانـت قـد عبـرت إلـى رصـيف آخـر. غلـى الـدم في عروقي، فشرعت أهمز نظراتي وراءها.

انعطفـت علـى رصـيفها، أمـا أنـا فلقـد بقيـت مغلـولاً علـى عتبـة الرصـيف الـذي أرمـق مـن فوقـه اللـون الأخضـر، وأقـذف كيـدي علـى السـيارات المسـرعة ممرغـاً الكـف الأبـيض لشـرطي المـرور بلهاثي.

غابـت قلـيلاً. عنـد المنعطـف علـى رصـيفها، سـلّطتُ سـهام عينـي على انعكاسات قامتها فوق زجاج واجهة لشركة خطوط جوية.

فــي زمــن البرتقــالي علــى الشــارة، تجــاوزت الممــر، تبعنــي الأخضــر. سـلّطت كـل طـاقتي البصـرية نحوهـا، لكنهـا كانـت قـد اجتازت المنعطف.

دغـدغني شـعور بالغبطـة مـن تلويحـة خضـراء أخـرى، تـدعوني أن أسـرع. تخيلـت نفسـي لصـق كتفهـا نجتـاز الممـر معـاً هـذه المـرة. وسـعّت خيـالي أكثـر فرأيـت شـرطي المـرور يـؤخر عبـور الحشـد، ملغيـاً عمـل الأضـواء الثلاثـة، ملصـقاً حواسـه بهـا... وصـلت قبـل أن تعبــر. إذن، عــدت فرأيــت شــرطي المــرور يفعــل العكــس «ابــن الحـرام». مـا إن رآهـا حتـى مـد ذراعـه، مبـدداً فعـل الأخضـر علـى الشـارة، وذلـك مـن حقـه، متطلعـاً إليهـا، وبحركـة مـن ذراعـه دعاهـا إلى العبور، وبمعيتها الحشد كله.

ركضـت مخلفـاً لهـاثي ورائـي وخـبط قـدميّ، تطـاردني تبرمـات المشــاة الطــافرة مــن عيــونهم. ألغيــت بــدوري نظــام الســير. قفــزت والشــارة خضــراء، تمايلــت بجســدي محــاذراً الســيارات المســرعة. مسـحت مـن ذهنـي النظـام الإلكترونـي علـى الشـارة، قيـدتُ ذراعـي

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

شـرطي المـرور بخفقـات قلبـي، وبحـرارة أنفاسـي قصـمت ظهـر توبيخاته خلفي.

خطـوات قليلـة تفصـلني عنهـا، لا شـارات حمـراء أو خضـراء. هي والدرب وأنا، بينما الحشد في أحواله اليومية.

لـم يحضـرني مـا سـأقوله لهـا لحظـة محاذاتهـا. ذلـك العنـاء مـن الجـري إليهـا بلهفـة، خـلا مـن أي تفكيـر بالكلمـات التـي يمكـن أن أقولها. ماذا أريد منها؟ إلى أين سأتجه بعد أن أحاذيها؟

غـدوت علـى بعـد خطـوتين منهـا، لـيس خلفهـا تمامـاً، بـل بالميلـة الأخـرى. لحظتهـا، تلاقـت نظراتنـا فـوق سـطح فضـي لـديكور محـل تجـاري. فهـي كانـت تميـل عنقهـا نحـو واجهـة المحـلات علـى الطريـق، وأنـا أفـتش عـن عينيهـا فـي كـل حركـة. برهتهـا تنـاثرني مـزيج مـن فـرح وارتبـاك وتـردد، سـكبته علـي ابتسـامتها الطافحـة فـوق السـطح الفضـي. طالـت الابتسـامة. وبـدوري كنـت أجمـع مـن فـوق السـطح الفضـي ثمـرات فـرح ووخـز قليـل مـن ارتبـاك، حتـى صـرت بجانبهـا، أطمـح أن تفتـل وجههـا نحـوي لأراه دون مـرآة، وإن كانت فضية.

التفتـت نحـوي. لفنـي دوارٌ مفـاجئ. تابعـت هـي ابتسـامتها، تشـرق دون سـطح فضـي، لتطـوقني بلمعـان برقـي مـن عينيهـا وهـي تتطلـع فـي وجهـي. لـم تغـادر نثـر ابتسـامتها، وهـي تـدير ظهرهـا للسـطح الفضي، واكتفت بسؤال:

ـ أما تأخرت عن إحضار الغسالة من التصليح؟

شـرعت بـدوري أرتـب جوابـاً. لـم تسـعفني اللحظـة، فهويـت بنظراتي إلى ساعة يدي، وبقيت أبحث عن ردٍّ.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الأصابع

مـن مسـرب صـغير، صـغير جـداً، اتسـع الفضـاء مبـدداً ضـيق المكـان، لينفـرج عـن أفـق جمـال، ينطـقُ ألقـاً فـي صـمت سـاحر، يشـي بأطياف حائرة.

فـي ذلـك المسـرب غَزَلـتْ نظراتـي خيـوط دهشـتي، وتطوعـتْ الحـواس بكـل طاقتهـا، تـأزر العينـين فـي مسـعاهما إلـى أفـق اللوحـة، تحثهمـا علـى معاركـة كـل وهـن، وتشـاركهما فـي متعـة اكتشـاف التفاصيل المحتجبة.

حركـة عابثـة، مضـرجة بالبلاهـة، تشـنج منهـا المشـهد، فتوعكـت الحـواس وهـوى الخيـال إلـى جـوف الفـراغ. فانقلـب الموقـف. حاصـله، دهمنـي وجـع فـادح مـن تشـرُّخات اللوحـة وانطفـاء ألوانهـا. قبلها كنت منتشياً في أمنية انزياح الوقت إلى آخر الموانئ.

لحظـة انقـلاب الموقـف، انقبضـت رغبـاتي، مقيـدة بإلحـاح شـرس على اغتيال الحياد الملفح بالبلادة في الميكروسرفيس.

حـين صـعودي، قبـل أن أحـط قـدمي علـى عتبتـه، أجَلْـتُ نظراتـي بحثـاً عـن مقعـد أليـف، غيـر ذلـك المقعـد المقلـوب، ظهـره إلـى

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

السائق، عكس الطريق، وصدره إلى الخلف، لأن بيني وبينه جفاء يتحول أحياناً إلى خصام.

ترددت قدمي عن ملامسة العتبة المعدنية، ثم خضعت. صعدت إلى الداخل خلف السائق تماماً.

خصومتي معه ليست من الدوار الذي يسببه للرأس، بل لأنني أمقت احتساء الصمت عندما تتلاقى عيناي بنظرات الآخرين. لأنه حينها يتخالط في نفسي أثر السكون الغاشم، مع النظرات الطائشة، لعلها المطيّشة، فيستفحل بطش الوقت، داخل وعاء مغلق، تقل مساحته عن ستة أمتار مربعة، فيصبح المشهد سجناً نقالاً، يتجه بحمولته إلى احتجاز جديد.

جلست على مضض، ثم شرعت أستنجد ببعض الأفكار للتخفيف من وطأة الحالة. روضّتُ نفسي على فكرة «أن الأماكن الضيقة والصغيرة حاضنة للألفة» ثم عللت امتثالي للمقعد بعبارة قرأتها مرة تقول: «إن العيون هي التي تجعل الأمام أماماً والخلف خلفاً».

على هدير المحرك، ومع دوران العجلات، تمايل الميكرو. ومن نغمة اهتزازاته نجت بعض الفضاءات من كتم الحشرة فانبثق وجهها في الزاوية التي تجاور مقعدي، لكنه ما لبث أن غُيّب محتجزاً، من راكب افترست عنقه عطفة الفضاء بين زاويتي مقعدينا.

لم تكن المرأة الوحيدة بين الراكبين المكتضين داخل الميكرو، لكن ومضة حضورها من مقعدها النائي، في ثوان، كان يحتدم فيها عراك ملحوظ، بين باقات الشمس المكابرة في الصمود، وجحافل الظلام الزاحفة، جذبت حواسي إلى دهشة غامضة.

تململت عيناي تتحرشان جثمة السكون، تبحثان عن فضاء للعبور إليها. لاح لي بروفيل وجهها متحدياً تخفيق أجنحة الظلام الهابط، ففارت لهفتي لأفق أرحب. فتّشت عن معارج أخرى، فأنفقت جهداً حميماً دون جدوى، مما اضطر عينيّ إلى التوقف عند المتاح من تفاصيل.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

شعر أسود فاحم، كأنه سحابة مسترخية على عنق حرج. رمشان يرفان غبطة لاجتياز مسافة على الطريق، شفتان ملتصقتان كبرعم زنبقة أرجوانية، تتململان كأنهما تنشدان تفتحاً واسترخاءً بعد طول مكابدة من صقيع جاف. وعن تلك الملامح انثال استهتار بضيق المكان، مخضب بجدارة الدفاع عن عرين غير آبه بالتربص.

عاودني نشيد الرغبة في رؤية المحجوب، تشبث على جفون عينيّ، رافضاً التراخي، مستقويا عليّ بسنتيمترات معدودة انفرجت بعد نزول صاحب العنق المفترس. لم أتوقع تضامن السائق مع رغبتي حين أطفأ الأنوار الداخلية فانسدلت عتمة صغيرة وديعة وهادئة.

مثل عطر الليل الذي يتحرك أول الغروب، تحركت هي لتغادر. مكثت نظراتها على النافذة. أصبح وجهها كله داخل الميكرو، غير أن بتلة العتمة الساجية التي راهنتُ عليها، لأوسع مغزل نظراتي، افترشت الطريق بين عيني وتفاصيلها، وراحت تدغدغ أشواقي.

نَهضَتْ فرسُ رهانٍ أخرى من سرير مخيلتي، حَمحَمتْ في مسمعي: لا تيأس، الأملُ قادم من خارج مكانك... ومضات ضوء خاطفة من سيارة مقابلة تزيح ستار العتمة عن التفاصيل المتخفية... لا تنكفئ فَيُحاصرك الضيق من المقعد المقلوب.

جاءت تباشير حزمة ضوء بعيدة، وقبل أن تسطو بوميضها لتذيب حاجز العتمة، لاحظتها تفتل عنقها بتألق، لتسكب نظراتها على زجاج النافذة من جديد.

لذتُ إلى الخيال من حدود أخرى...

خُذْ مكان السائق... أنصب مراياك على كل الزوايا... لقم الكاسيت ما يوقظ في أحاسيسها الرغبة في الحركة... دقق في أغنية تبعث لحناً دافئاً في أرجاء الجسد. معه ستتحرر من سكنتها وتفكُ عنها طوق الحذر، تتمايل بكتفيها مع النغمات، وتتفتح الزنبقة من انسياب الفرح على الخدين. ثم أرهف أذنيك فستسمع

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

نقرات أصابع كفيها تعزف على حقيبة اليد المركونة في حضنها. وسترى رجرجة صدرها من تنفسها الآمن كأنها نهر يسافر بهدوء إلى مصبه البحري.

نبه بعض الأضواء في السقف فتنسكب منه خيوط على زجاج النوافذ، ومن انعكاساتها البهية تتكاثر المرايا... ستتزاحم الصور من كل جانب، فتَّش في مرايا المرايا عن مرامك، لا بدّ أن تعلق مغازل عينيك هناك: فوق صعدة كتفها الأيمن ارتقاء إلى العنق فتغمرك الدهشة الباذخة.

هناك، وأنا أحلق في مسرح الخيال، أغار على ملاذي كابوس «فرامل» الميكرو تلبية لطلب راكب في النزول، فحدست أن الركاب أمسكوني متلبساً في حرمة الخيال.

مررت نظراتي بهم على عجل فاكتشفت أنهم في واد آخر بعيداً عن طريقي. بلعت ريقي لأبلل جفاف حلقي، وأنا أحتفل بسرية غيابي في مرتع الخيال، أما الصور التي تولدت من عناق المرايا فقد استمرت تلازمني وتتكاثر.

وشوشتُ قبَّةِ كنزتها البرتقالية، المرتفعة قليلاً على حدرة عنقها. توسلاتها همساً أن تنحسر قليلاً رأفة بالشوق إلى استكمال اللوحة... لكنها كانت قبة حروناً.

حوَّمَتْ حولي غمامة يأس لولا ذلك المنعطف الذي أتاح لعيوننا عناقاً غامضاً وبريئاً، تأكدت منه إحساسها بانهمار نظراتي، فانتابي خدر لذيذ، رغم أنها راحت تزيغ نظراتها لتموه على زهوها من صلاة عيني في حضرة جمالها.

كانت متعة التوغل في التباس اللحظات تبعث حساباً جديداً للزمن وترسم للمكان حدوداً بعيدة عن محطات الصعود أو النزول من الميكرو، فلم يخطر على بالي احتمال انسحابها في محطة لم أكمل معها رحلة اندهاشي.

لفّتْ شالها الفضي على عنقها المتباهي، ثم مالت إلى الأمام لتُسمع السائق نداءها له بالتوقف.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

قَوَّسَـت جـذعها مـن وطـأة السـقف، ثـم خطـت وأصـابع يـدها تمسك حافـة النافـذة المفتوحـة، هـي ذات الأصـابع التـي كانـت تعـزف فـي خيـالي. حينهـا لمّـا كنـت أرسـل آخـر بريـق مـن عينـي نحوهـا، زلزلتنـي صـرخة سـبقها أنـين أصـابعها مـن عضـة الزجـاج القاسـي، الـذي عتلتـه يـد تشـبه خطافـاً معـدنياً، لراكـب أراد إغـلاق النافـذة وهـي تخطـو للنـزول، قبـل أن ترفـع أصـابع يـدها عـن مسـندها علـى إطار النافذة.

نَزَلـتْ، وفـوق الرصـيف حَنَـتْ علـى أصـابعها المغـدورة تغسـلها مـن الألـم بـدفء أنفاسـها. وأنـا وجـدتني فـي مهـب ارتعاشـات موجعـة، ومـن حنجرتـي انـدلع أزيـز كشـف عـن حزنـي فـي مسـاحة من لهاث خشن. بينما تحول الميكرو إلى مرتع لسكون ثقيل.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

طابتان

على جدران بيوت الحي المتصلة، المتلاصقة، كانت طابتنا القماشية تنُطُّ بطراوة ولين لا يشبههما سوى حنيَّة طين الجدران المتحاضنة بألفة وأمان.

إن تألم من شدَّة ارتطامها جدار، كان يكتفي بنثر ذرات غباره الرطبة الممزوجة بقشر الحنطة والشعير، فتعبق في أنفاسنا روائح لا تنام في كل الفصول.

طابتنا القماشية لم تكن تلسع أو توجع. تداعب وجوهنا في غفلة منَّا، أو تمرُّ على أجسادنا فتجفف عرقنا وتمتص منه فتزداد طراوة.

إن ركلناها بقوة لا تئن ولا تتذمر. فأوصالها المترابطة بانسجام، أصلها أسمال دفأت أجسادنا وسترتْ عُرينا قبل أن يتعبها الزمن وتصير «شراطيط». في تلافيفها اتحدت كل ألوان الوجود. وأقمشتها من كل الخامات فما تخلينا عنها رغم الصعاب والتحديات. فمختار الحي شن عليها ذات يوم هجوماً، انتقاماً لطربوشه الذي سقط من ارتطامها به.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أعـدناها إلـى الحيـاة بعـد أن حـاول تمزيـق أحشـائها بأظـافره. وعـادت بهجتنـا فـي حـدود ملعبنـا بـين جـدران الحـي. صـادرتها منـا أكثـر مـن مـرة، عجـوز كانـت متفرغـة لمقارعـة الأولاد، وكنـا نستعيدها بكل حيلة ووسيلة.

إن تعبـت بعـض أوصـالها كنـا نعيـد تـدعيمها «بشـراطيط» جديـدة، فنعيـد خَلْقَهـا مـرة أخـرى. لـم تأخـذنا الغيـرة مـن أولاد الحـارة الجديـدة الـذين يملكـون طابـة جلديـة يحشـوها الهـواء، فجـدران حـارتهم مـن الإسـمنت الصـلب لا تنبـثُّ منهـا رائحـة غبـار بيوتنـا إذا ارتطمـت بهـا. جـدراننا الحنونـة إن لكمتهـا طابـة تتوجـع فتتسـاقط قشيشـاتها وتخـدش عيوننـا. ومسـاحة ملعبنـا لا تتسـع لتحليقهـا البعيـد. أمـا جسـدها المحشـو هـواءً فسـرعان مـا يضـمر ويتـرنح إن لامسـه مسـمار مـن نعـال أحـذيتنا، أو إذا حفّـت بـه مزاريـب التنـك المشـرئبة فوق أسطحنا.

لـم نكـن نرغـب اسـتبدالها بطابتنـا القماشـية، لكـن بعـد عصـر ذلـك اليوم تحولت الأقدار ضدها.

يومهـا، حـين كـادت نعمـت أن تسـجل هـدف التعـادل فـي مرمـى النصـف الآخـر مـن أولاد حارتنـا، متدافعـة بكتفيهـا معهـم، مـرّرَت الطابـة بفـن وخبـرة، ونـاورت بجسـدها فاجتـازت المـدافعين، ولمـا صـارت علـى مقربـة مـن المرمـى، وهـي تسـتعد بحماسـة لتسـدد الكـرة، علقـت الطابـة بقـدمها فحاولـت تخليصـها بالقـدم الأخـرى، فالتفـت الشـراطيط علـى القـدم الثانيـة، وفقـدت نعمـت توازنهـا فوقعـت وهي تحاول حماية وجهها من السقوط.

تجرّحـت أطـراف جسـدها، انكشـط جلـد ركبتيهـا. صـرخت وعلـى دوي صـرخـتها خمـدت عزيمتـي، وتوقـف أولاد الفريـق الآخـر عـن اقتناص الكرة.

اتكـأت براحـة يـدها علـى الأرض فمـددت لهـا يـدي أمسـك ذراعهـا، ارتفعـت بـبطء وهـي تـئن وتكـز علـى أسـنانها. وقفـت، ولمـا مشـت عرجـت فـي خطوتهـا وهـي تتجـه إلـى دارهـا مـرددة: أن لا تعاود اللعب بالطابة القماشية أبداً.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لحظتها نظرت إلى الطابة القماشية، كانت شراطيطها مفلشَّة مسجّاة على الأرض، تخيلتها تنادي على نعمت، تستغفرها وتتطوع لإسعافها وتضميد جرحها.

بين الحزن على نعمت وعشقنا للطابة تعاركت مشاعرنا. قرفصت وظهري سند الجدار. مشيت مع خُطى نعمت بعينين أهدابهما متعثرة، وفي دواخلي تنازع وحيرة.

ستغادرنا نعمت إن تشبثنا بطابة «الشراطيط». ولا فائدة إذن من معالجة الطابة، فشفاؤها من تفلُّش أوصالها لا يفك أسرنا من قرار نعمت نحوها. وإن اخترنا التمسك بالكرة القماشية فلا يعود للعب طعم أو مذاق في غياب نعمت.

كانت متعتي باللعب تبدأ لحظة حضورها، وتنمو المتعة أكثر إن ضممتها إلى فريقي. كانت ترقص، وتدور على رؤوس أصابع قدميها مثل لاعبة باليه، عندما تعبر الكرة مرمى الفريق الآخر، فتكاد أن تنفصل عن الأرض، مثل فراشة تحوم حول زهرة برية دون أن تجوس وريقاتها.

و عندما كانت تنفذ رمية «الآوت» يطفح الألق من أرجائها. فهي تقبض الكرة بيديها ثم ترفعها عالياً، تتفحص بعينيها مواقع اللاعبين، تثبت قدميها على الأرض وترتقي بجسدها إلى الأعلى فترتسم في مخيلتي طائراً يهم بالانطلاق إلى الفضاء.

***

غادرتُ سندة الجدار وأنا متوجع من كشط ركبتيها. مشيت على مهل، وحسمت انحيازي مودعاً الطابة القماشية، بخفقات حزن وحسرة. وشرعت أفكر بطريقة توفير ثمن طابة جلدية... تطج... تنط... تزحف بسرعة... تنقذف بقوة... تحلق عالياً... تدور نشيطة، وفوق ذلك تقسو بارتطامها فينا، لكن الوجع من غياب نعمت أقسى من ألم تسببه طابة الجلد المضغوطة بالهواء.

احتسبت ثمن الطابة الهوائية. قسمت الليرة وربع الليرة على

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أربعين قرشاً، هي أقصى ما يمكنني تحصيله من بيع البوظة «الأسكا» في اليوم الواحد، فجاء الناتج ثلاثة أيام مع نقص فرنك واحد لاستكمال المئة وخمسة وعشرين قرشاً، أحتاج إذن ليوم رابع أو نصفه على الأقل لحل «قضية» الفرنك الناقص. فهو يضيف يوماً رابعاً تغيب فيه نعمت عن اللعب.

قرقع الفرنك في رأسي، على رناته تراقصت الشياطين، تداعبني تتودد إلي. تقرَّب مني أرشقهم وأقلهم أذى. ساهرني يوشوشني ونام عندي ليلتها بعد أن وعدني بفرنك كبير إن أخذت باقتراحه.

دخلنا معاً في صباح اليوم التالي، وكان الثالث من سقطة نعمت، إلى دكان البوظة. ظننته سيحمل معي علبة «الأسكا» ليريحني قليلاً، وإذا به يساعد البائع الكبير في حشو العلبة بالكمية المعتادة. تعثرت يداه الصغيرتان، أو هو عثَّرهما عن سبق إصرار وتقصد، تمايلت قطع البوظة في العلبة دون ترتيب. كاد البائع الكبير يتلخبط بالعدد. لحظتها تدخل شيطان ابن شيطان أكبر من صديقي الشيطان الصغير، فارتبك عندما عاود البائع الكبير عدَّ القطع المحشوة في العلبة، فأمسك بقطعة زائدة عن المعتاد، فدلق القطع وأبعدني عن بضاعته، ثم راح يحشو العلبة بالعدد المطلوب دون زيادة أولاً، ودون نقصان. فانصهر الفرنك بين يديه مع القطعة الزائدة التي حاول الشيطان الصغير ترتيبها لتحصيل الفرنك الناقص، واختصار الزمن في الطريق إلى الطابة الجلدية.

خجل شيطاني الصغير من انكشاف حيلته، وحزن عليَّ. افتقدته وأنا أتجول في الدروب، فظننت أنه نكث بوعده، لكنه حسم الشك باليقين حين عاد ليؤكد إصراره على مساعدتي في العودة إلى اللعب ودون الحاجة ليوم رابع لتحصيل النقص في ثمن الطابة الجلدية.

مضينا معاً، أنا هائم على وجهي، وفي حلقي غصة خنقت نداءاتي "آسكا.. بوظة.." فلكزني فجأة ــ لينبهني على رزقة.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

ووشوش في أذني وأنا أناول زبوناً من الأطفال قطعة ثمنها خمسة قروش، وبينما كنت أهم مد كفي لآخذ ثمن القطعة، مد الشيطان الصغير يده قبلي ليقبض القروش العشرة، وخاطب الطفل قائلاً: "ما معي فراطة" انتظرني لأصرف العشرة قروش. تسمَّر الطفل الزبون وهو فرح بامتصاص قطعة البوظة. أما الشيطان صديقي فأمسك بيدي وهو يقفل اليد الأخرى على القروش العشرة، وقادني بسرعة، فتلاشينا بين الأزقة، وأخذ ينهرني كلما التفت إلى الخلف. فابتعدنا عن الزبون الذي ينتظرنا لتحصيل خمسة قروشه، وانغمرت بالاطمئنان، لكن لعنة على الشيطان الصغير انبجست من داخلي فسحبت يدي من يده دون أن أودعه أو أشكره.

رمحت مسرعاً لبائع البوظة الكبير، لكن يدي تتحسس كل ثانية الفرنك المعزول في جيبي غير المخصصة للغلة. وعلى ملمسه الدائري هبت أفراحي، فتمتمت أغنيات لحنتها على إيقاع خطاي نحو دكان بائع الكرات الجلدية.

أخذتها، لامستها، قبَّلتها، ضغطتها، تشممتها، وطوقتها بذراعي ثم حضنتها وركضت مسرعاً إلى درب حارتنا. هناك عند جدار بيتها، تحت نافذته الصغيرة المرتفعة، رحت أنادي على نعمت بصوت الطابة الجلدية دون أن أهمس ببنت شفة. طجطجت بها، نططتها، ودحرجتها، قذفتها عالياً قبالة النافذة علَّها تراها إن لم تسمع نداءاتها.

تردَّد صدى نداءات الطابة. نظرت إلى النافذة، تمنيت أن تعلق الكرة في الهواء مواجهتها حتى تراها نعمت وتقطفها في الصباح التالي.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

لوحتان

ثبَّتت نظراتها عالياً، ثم وزعتها في الفضاء السماوي. بين حزمة وأخرى من النظرات كانت أغصان أشجار الصنوبر، بتمايلها، تقطع عنها المدى.

بقيت تنتظر، لكن اضطرابها راح يتقاطر كلما نظرت إلى الوقت في ساعة يدها. وازدادت توتراً من ثباتها عند محطة الانتظار. بينما غيوم متقطعة تحركت نحو البعيد. مضى وقت الموعد، ومن بين فراغات أغصان الصنوبر ظهرت أسراب طيور مهاجرة.

حضر هو بخطوات عادية، ليست بطيئة، وليست سريعة. فازداد حنقها من فتوره وهو يقترب من محطة الانتظار.

لم ترد عليه التحية. سألته عن سبب تأخره، فلم يقدم لها أي تبرير أو اعتذار. كانت تتمنى أن يوهمها بسبب ولو كاذب، لكنه لم يفعل ذلك. ابتسم غموضاً وهو يبادلها الحديث. وكشف لها عن ارتياحه لمشهد انتظارها وهو قادم نحوها، فانسحبت وعزفت عن مرافقته لزيارة معرض للتراث.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

زارها في منزلها بعد أيام متأبطاً لوحة، وقبل أن تركز النظر فيها، وهو يرفع عنها الغطاء، عاجلها قائلاً:

- هذه... لوحة الانتظار!!

أمسكت بها ورفعتها عالياً وأماماً، باعدتها ثم قاربتها، وانفجرت بضحكة مجلجلة، ثم ألقت بها على حافة الطاولة بملاصقة الجدار وتمتمت:

- هذه اللوحة لي... وهذه... لك،

رنّتْ صفعتها قوية على وجهه. انتفض ثم تراخى في مكانه. وتشكلت على خدّه لوحة لأصابع كفها. تجمد في مكانه. نظر إلى عينيها فوجدهما شمعتين تشعان إلى باب المنزل، فاتجه إلى الطريق الذي دل عليه ضوء نظراتها، وغادر دون أن يستدير.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الماء

مثل لص يتسلل خلسة، أو طبيب يدخل حجرة مريضه بهدوء تام، أدار المفتاح في قفل الباب. ودون همسة خطى كعاشق يفاجئ امرأته التي استسلمت لإغفاءة يقظة بعد طول انتظار.

أضاء النور في الحجرة. نظر إليها فوجدها متكورة، أما لونها فبقي متوهجاً. في اليوم السابق، عندما فتح الباب، تسلل قبل أن يضيء النور، نظر إليها فوجدها متفتحة، متمايلة، مسترخية، تشرع صدرها إلى مداه. تنفَّس عطرها، ملأ عينيه من سحر قوامها، وبدأ بالتعري قبل أن يستلقي على السرير.

لم تستيقظ اليوم على الضوء، ورائحة أنفاسها لم تكن على طبيعتها، لكن إشراقة لونها ملأت عينيه.

ظن أن حرارة الغرفة هي سبب تكورها وتعاستها وضيق أنفاسها. فأدار المكيف.

قبل أيام وعلى هواء المكيف المشبع بالبرودة، تحركت، تفتحت، واتسع قوامها.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

أوقف المكيف، وأطفأ النور ثم أشرع النوافذ. فهي ذات يوم انتصبت على قامتها نشيطة من تدفق الهواء الخارجي، لكنها لم تكترث لفتح النوافذ.

أضاء ثم أظلم. أغلق النوافذ وفتحها. أدار المكيف ثم أوقفه. داعبها بأنفاسه ثم ابتعد عنها دون جدوى، واستمرت متكورة.

أخرجها من الكأس... أفرغ منه الماء العتيق، ثم زرع قامتها في ماء جديد، فبدأت تفك أزرارها وتتفتح. وعاد لونها المتدرج من القرميدي في أطرافها السفلى إلى الأناناسي الشفاف في ذروة أوراقها، فبدت كفراشات تتعانق في تحليق جماعي، لقد أعاد الماء إليها تفتُحها الكامل.

واصل التعري واستلقى مطمئناً على السرير، بينما الوردة ترتوي من الماء الجديد.. تبتسم وتنهض.. وتنهض.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

الكأس الأخير

في الأماكن الفسيحة، المفتوحة على الأمداء من كل اتجاه، كان يطيب لهما الجلوس. الزمن يمضي بسرعة. تتبدل الفصول، زمنهما مختلف، وفصلهما خارج مناخات الفصول المعتادة.

كان يسألها في الشتاء: "ألا تشعرين ببرودة الطقس؟" تقوم هي بنزع ردائها الخارجي، تلقي به على الكرسي، أو فوق مساحة جافة على حافة السور... تقترب من أنفاسه وتخاطبه: "بركان حرارة أنت... من دواخلنا يولد الدفء..."، وتطلب المزيد من الثلج للشراب بعد أن تزحف نحوه بمقعدها، لتختصر المسافة... تلغيها.

في أمسية تموزية تباطأ الزمن. اختلف. أما الحديث بينهما فقد تعثّر عند بعض منعطفات الصمت، وتثاقلت الكلمات لتظهر التعب في رناتها.

ارتجفت قليلاً، شبكت ذراعيها على صدرها، اقترب منها... طلبت شراباً ساخناً.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

سألها عن الطقس... أجابت:

ـ أشعر ببعض البرود... الطقس بارد هذا اليوم!!

أسرع هو في إفراغ كأسه ثم ودَّعها وانصرف.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa»

الفهرس

الأحصنة

السلطان يوزع الحليب 7
الأحصنة 17
منـار 23
وليد مسعود ليس في أريحا 29
الكعب 37
من أوراق عوض الغبساوي 43
مساحات 49
المقعد الفارغ 55
قبلة على الوجه في الملصق 59
الوثـبـة الأخيـرة 63

جسر الصمت

جسر الصمت 71
السطح الفضي 77
الأصابع 83
طابتان 89
لوحتـان 95
الماء 97
الكأس الأخيـر 99

منشورات «ألف ياء» AlfYaa

صدر للمؤلف

- **غسان كنفاني**، (دراسة نقدية في جوانب من أدبه ورسائله
- **مربعات وشظايا**، (قصص قصيرة)، دار الكنوز الأدبية – بيروت 1998.
- **شرك الدم، (الطنطورة 22-23 أيار 1948، معركة ومجزرة)**، دار كنعان، دمشق 2001.
- **أمن إسرائيل (الجوهر والأبعاد)**، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي 2001.
- **بوح في المتاح، (حوار مع د.إلياس شوفاني)**، بالاشتراك مع **عبده الأسدي**، دار كنعان- دمشق 2002.
- **خيوط السراب (مشاريع الدولة الفلسطينية من الكتاب الأبيض 1939 حتى إعلان بوش الابن 2001)**، دار علاء الدين – دمشق 2002.

منشورات «ألف ياء» AlfYaa